14 me Année No. 662

Lundi —11—3—1946

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire

Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٦٦٢ « القاهرة فى يوم الإثنين ٧ ربيع الآخر سنة ١٣٦٥ — ١١ مارس سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

جمال الدين الأفغاني (*)

جهاده فى سبيل الشورى والحرية

[بمناسبة ذكرى وفاته التاسعة والأربعين]

فى اليوم التاسع من شهر مارس عام ١٨٩٧ قضى السرطان فى عاصمة الخلافة على الحكيم الثائر المصلح السيد محمد جمال الدين الأفغاني، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ومسح عن عيون الشرقيين ما فتّرها من همود الكرى ، وجلا عن قلوب المسلمين ما غشاها من صدإ الجهل ، فاطمأن الاستبداد ، وأمن الاستعمار، وظن الذين ينقضون أوطانهم ليقيموا عروشهم ، والذين يزيفون أديانهم ليملأوا كروشهم ، أن الصوت قد خفت ، وأن الشعل قد انطفأ ؛ ولكنهم نسوا أن الرسل يبلغون والله يُثبِّت ، وأن المصلحين يبذُرون والدهر يُنبت ، وأن جمال الدين إنما كان صيحة الحق وإشراقة الهدى انبعثتا فى يومهما الموعود كما ينفجر المكظوم فيدوّى ، ويحلولك الليل فيُصبح . وهل كانت الثورات الديمقراطية التى شبها العرابيون ثم المهديون ثم الاتحاديون ثم السعديون ثم الهاشميون ثم الفهلويون إلا أقباساً من تلك الشعلة المباركة التى حملها الأفغاني وتنقل بها فى ممالك الشرق ، يحرق ويضئ ، وينضج ويُحمى ، ويُقبس ويشمل ، وساعده مرفوعة لا تكل ، وعزيمته ماضية لا تنكل ؟

وسر القوة فى هذا الرجل أنه كان صاحب رسالة لا طالب مُلك : هاجم السياسة الإنجليزية فى (العروة الوثقى) أعنف الهجوم أيام الثورة المهدية ، فدعى إلى لندن ليلوح له اللورد ساليسبُرى بمُلك السودان ليطفئ الثورة ويقترح الإصلاح . فما كان جواب الأفغاني إلا أن قال : « إن السودان لأهله . وهل تملكونه حتى تملكونى عليه ؟! »(١)

وأراده السلطان عبد الحميد على مشيخة الإسلام فأباها وقال : إن وظيفة العالم فيما يزاول من تعليم، وإن رتبته فيما يحسن من علم(٢).

أما كيف تهيأت نفسه لرسالة البعث والتجديد على فترة من رسل الهدى وأئمة الإصلاح فجّر فيها الحاكم وكفر المحكوم ، فذلك من علم الله الذى يصطفى من يشاء كما يشاء لنصرة حقه وهداية خلقه . وكل ما نظنه معيناً على هذا التهيؤ أنه ولد فى بيت كريم الأصل يجمع إلى جلالة النسب إلى الحسين ، سؤددَ الإمارة على بعض الأقاليم الأفغانية ؛ وأنه درج فى بيئة تمتز بطباع البداوة من حرية وحميَّة وأريحية وأنفة ؛ وأنه درس فيما بين الثالثة والثامنة عشرة من عمره علوم الدين والدنيا ، وفنون اللسان والعقل ، على منهاج محيط شامل ؛ وأنه حذق فى مراحل حياته ومواطن رحلاته اللغات العربية والأردية والفارسية والتركية والفرنسية ، وألم بالإنجليزية والروسية ، فاتصل منها بثقافة الشرق والغرب فى القديم والحديث ؛ وأنه طوّف ما شاء الله أن يطوّف فى أقطار الهند وإيران والحجاز ومصر وتركية وانجلترا وفرنسا وروسيا ،

(*) أذيعت فى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية فى مساء يوم الجمعة الماضى .

(١) خاطرات جمال الدين للمخزومى ص ٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٠ .

فازداد بصراً بأحوال الدول وأخلاق الشعوب ؛ وأن موقع أفغانستان بين الهند وإيران أمكنه من أن يرى ميادين الاستعمار المدل الذل تتواثب عليها قوى الإنجليز والروس ظاهرة وباطنة ، فهاله منذ شب عدوان الأجنبي على استقلال أمته وجيرته

كل أولئك الذي ذكرت من كرم المحتد، وشرف المولد، وبداوة البيئة، وعمق الثقافة، وحذق اللغات، وإدمان الرحلة، ومعاناة الاستبداد، ومكابدة الاستعمار، لم يخلق وحده الرجل المصلح في جمال الدين، وإنما كان مساعداً لسر العبقرية الذي أكنّه الله فيه على أن يظهر مهيأ الأسباب مستكمل الوسائل.

* * *

كان رضى الله عنه متواضع النفس لأنه عظيم، جرئ الصدر لأنه حر، ندى الراحة لأنه زاهد، ذرب اللسان لأنه قرشى، أبى الضيم لأنه أمير، حاد الطبع لأنه مرهف، صريح القول لأنه رجل. ولم يبتغ من وراء هذه الصفات — كما قال — إلا سكينة القلب. وكان يحمد الله على أن آتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول مايعتقد ويفعل مايقول[1]. ومن تمازج هذه الشمائل وتلك الوسائل فيه اتسعت حوله الأرض، وامتد أمامه الأفق، وانصرف همه البعيد عن الدار والزوجة والعشيرة إلى الوطن الإسلامي كله، والشرق الإنساني كله، فجعل قصده ووكده أن يدعو إلى إنهاضهما بالوحدة الإسلامية لتدفع غائلة المستعمر، وبالحكومة الدستورية لتقمع شرة المستبد

وقد آمن بهذه الدعوة إيمانه بالله حتى رأى في سبيلها السجن رياضة والنفى سياحة والقتل شهادة[2]!

وكان الذين يقفون من سيرة الأفغانى على الهامش يظنون أنه قصّر جهده في تحقيق هذه الدعوة على الكتابة والخطابة ؛ والواقع الذى لا شك فيه أنه فكر ثم قدّر ثم دبّر، ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لا تلتئم، والاستبداد كان من الثبات بحيث لا ينهزم

تولى الوزارة وهو في ريق شبابه لأمير الأفغان محمد أعظم، فجمع نفسه على الاستقلال، وأدار أمره على الشورى، فأوجس الإنجليز خيفة من هذه النزعة، فأرسلوا ذهبهم إلى منافسه فأضرم الثورة وفرق الكلمة وطرد الأمير. وخرج السيد إلى الهند يبتغى السكينة عند تاجر صديق، فاستقبله الإنجليز على الحدود، وأنزلوه بالإكراه ضيفاً على الحكومة. فسألهم الإقامة شهرين، ولكنهم حين رأوا إقبال الناس عليه، وإصغاءهم الشديد إليه، قصّروا هذه المدة وأمروه بالخروج. وكادت الأعصاب الهندية المخدّرة تثور حين قال لزعماء الهنود وهو راحل:

« وعزة الحق وسر العدل، لو أن ملايينكم مُسخت ذباباً لأخرجت الإنجليز بطنينها من الهند. ولو انقلبت سلاحف، وخاضت البحر إلى الجزر البريطانية لجذبتها إلى القاع » !

* * *

وفى الآستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجلة، وأحله أعيان الدولة محل الكرامة. ثم عُين عضواً في مجلس المعارف، فرأى في التعليم رأياً، وخطب في الصناعة خطبة، أحفظا عليه أعوان الجهل من رجال العلم، وإخوان الضلال من شيوخ الدين. وتولى قيادة الإرجاف شيخ الإسلام لحاجة في نفسه، فافترى على الرجل الأباطيل، وبث حواليه النمائم، فلم يجد الأفغانى بداً من النزوح إلى القاهرة.

وهنا وجد الصدر الأرحب في رياض باشا، فتجلت عبقريته في التعليم والتنبيه والتوجيه ؛ وأوقد بالزيت المقدس شعلته الوهاجة في البيت وفي القهوة، فمشا على ضوئها الهادى طلاب المعرفة وعشاق الحكمة من علماء وأدباء وساسة وقادة. ثم اتخذ من المحفل الماسونى الذى أنشأه، منارة لهذه الشعلة، فقسم الإخوان العاملين فيه شُعباً لكل وزارة من وزارات الدولة شعبة. فشعبة الحربية تنظر في ظُلامة الضباط المصريين، وتنذر (ناظر الجهادية) أن يُنصفهم من الضباط الجراكسة. وشُعب الحقانية والمالية والأشغال تنذر وزراءها أن يساووا المصريين بغيرهم في العمل والرتب. وراع أولى الأمر ما قرأوا في تقارير الشعب، وما سمعوا من لغط الموظفين، وما رأوا من قلق المثقفين، فاستدعاه الخديو توفيق وفاوضه في ذلك، فقال له فيما قال: « إن سبيل الإصلاح أن يشترك الشعب في حكم البلاد عن طريق الشورى ». ثم ازداد جمال الدين إمعاناً في حملته، وانقلب الأدب كله أصداء لأحاديثه وأبواقاً لدعوته، حتى انتهى الأمر — بعد جهاد ثمانى سنوات — إلى أن ضاق الإنجليز بسعة نفوذه، فزينوا للخديو أن يخرجه من مصر فأخرجه

(١) خاطرات جمال الدين ص ٢١ (٢) المصدر نفسه ص ٢٣

وانتقلت الشعلة إلى باريس ، وسطعت فى العروة الوثقى ، وظلت ألسنتها ثمانية عشر شهراً تومض فى جنبات الشرق كما تومض المنارة فى ظلمات المحيط ، حتى دلت على أوكار الطغيان ونمت بأسرار القرصنة ، فاستقدمه شاه العجم واستوزره ، فلما أشار عليه بالشورى أشاح بوجهه عنه . واستزاره قيصر الروس واستخبره ، فلما نبأه بحديث الشورى نفر منه . واستدعاه خاقان الترك واستشاره ، فلما نصح له بالشورى وتقسيم الامبراطورية إلى عشر خديويات يتولاها أمراء عثمانيون ، زوى عبد الحميد ما بين عينيه ؛ ولكنه ألطف الجواب للحكيم الشجاع ، وظل على إكرامه واحترامه أربع سنين حاول فيها أن يكبله بقيود المنصب والزواج فلم يستطع ، ولكن الموت استطاع أن يكبل الثائر الحر ليبلغ الاستبداد أجله المقدور !

وهكذا كانت حياة جمال الدين كلها جهاداً مضنياً فى سبيل الله والعلم والحرية والشورى .

كان أينما حل تنفس الصبح واستيقظ المجدود ، وأينما رحل ارتجفت العروش واضطربت القيود !

طيب الله ذكرى هذا الإمام العظيم ، وأجزل له ثواب المصلحين المخلصين فى جنات النعيم !

احمد حسن الزيات

آمال نزكيها صحائف مطوية :

المســـــاجد الجامعة

وأثرها في حياة المسلمين وتربيتهم الدينية

للأستاذ أحمد رمزى

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

كانت فكرة تربية المسجد تعاودنى من وقت إلى آخر . وكانت حوادث الزمن تمر علىّ فلا أشعر بمرورها . لقد قضيتُ أسعد سنوات العمر وأزهرها مغترباً عن بلادى ، مشرّقاً حيناً ومغرّباً أحياناً ، وأطلقت العنان لنفسى أقرأ وأستمع وأبحث ، وأدرس الحركات الشعبية وتأثيرها ، وأتصل بأصناف مختلفة من الناس ، وألمس عن قرب تطور العالم وتمخضه بالحركات الفكرية الكبرى ، ومع ذلك كانت تلازمنى فكرة حمد الله صبحى عن تربية المسجد وأثرها فى حياة المسلم .

واجتهد أن أصل إلى تكييفها وفهمها لإيجاد طريقة أومنهج لتحقيقها . وكان أشد ما يقابلنى من المصاعب ، ويصدنى عنها هو مناقضتها بمنطق يستند على أنها بعيدة عن الإسلام وأنها تقليد للمذاهب والأديان الأخرى ، وفى ذلك هدم للفكرة وإخراج لها من حيز القبول إلى حيز التحريم والإنكار .

ففى يوم من أيام إقامتى بسوريا ولبنان مدة هذه الحرب اتجهت نية بعض الاخوان إلى زيارة الحصون والقلاع التى تركتها الحروب الصليبية . فلما زرناها وقفنا دهشين لأن ما نقش على الحجارة ينطق بفتحها على يد ملوك مصر أمثال بيبرس وقلاوون وابنه الأشرف خليل ، فبدأت أشعر شعوراً جديداً ، بعظمة مصر الإسلامية العربية وأثرها فى العالم العربى ، وحنقت على وزارة المعارف التى أهملت هذه الناحية فلم تلقنى شيئاً عن تاريخ بلادى فى معاهدها سوى أنها أنقصت من قدر ملوك الإسلام الذين تولوا الحكم فيها ، فلم تكشف لى عن صفحة مجد واحدة تحبب إلىّ ذلك العصر المملوء بالفتوح والحروب والمعارك والانتصارات التى منّ الله بها على جند مصر العربية الاسلامية وملوكها ، ومكنتهم من هذه الحصون التى وقفت تقارع الزمن حتى مهد الله فتحها على أيديهم بعد أن عجز غيرهم عنها ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

وكان أن أخذت نفسى بقراءة المراجع كما كتبها المعاصرون لتلك الحوادث ، فهدانى الله إلى حقائق كانت مغلقة علىّ ، إذ عرفت أهمية المساجد الجامعة وأثرها فى تاريخ المسلمين ، وكيف أسند ملوك الإسلام وظائف الإمامة والخطابة للقضاة وكبار العلماء من مشايخ الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة ، وكيف أرصدوا الأوقاف والأموال والخيرات والنعم الوافرة على مساجد الله . فأين ذهب كل هذا ؟

ولم تتلق شيئاً عن هذه المساجد وتاريخها ما يدفعنا لزيارتها والتحدث عنها كجزء متمم لتاريخنا وشخصيتنا ولكن هذا النقص تكفلت به كتب التاريخ والتراجم والأدب .

فقرأنا فى صبح الأعشى الكثير عن الوظائف الدينية

ودرجاتها وأهميتها ، فمن ذلك صورة تقليدين لمشيخة الشيوخ أحدهما للخانقاه الصلاحية « سعيد السعدا » من إنشاء القر الشهابى ابن فضل الله العمرى ، والثانى لمشيخة الخانقاه الناصرية بسرياقوس من إنشاء السيد الشريف شمس الدين ، وكلاهما تحفة من تحف الأدب الديوانى ، ودليل على العناية والاهتمام بمراكز الدين وأهمية الإمامة والخطابة بالمساجد فى صميم الدولة الإسلامية .

فبالله عليك ماذا يكون موقفنا لو أبقى الزمن على محفوظات ملوك الاسلام بمصر بأكملها ؟ وإنه لشىء عظيم يدل على أن المساجد الكبرى مثل جامع عمرو وابن طولون والجامع الأزهر بعد ذلك وجامع الحاكم والسلطان حسن وجامع الملك الظاهر ، وجامع القلعة ، كان يتولاها أكبر علماء العصر . ولو شئنا أن نؤرخ لكل منها وأن نصف ما مرّ من العزّ عليها ، لاحتجنا كتاباً لكل منها .

إذا تقرر ذلك ، فما الذى يمنع أن يردّ اعتبار هذه المساجد إليها ؟ فتسند وظائف الخطابة والإمامة إلى أكبر علماء الدين وأعلاهم قدراً ، وأكثرهم غيرة على الدين ، مثل فضيلة الأستاذ الأكبر ، ومفتى الديار المصرية ، وقاضى القضاة وهو اسم تاريخى ما أجمل وقعه لو أطلق على رئيس المحكمة العليا الشرعية ، وإلى غيرهم من هيئة كبار العلماء وأساطين الشريعة السمحاء ، وأن يقلدوا هذه الوظائف بمراسيم عالية تصدر بالألقاب التى كانت تستعمل فى العهود الاسلامية .

فجامع عمرو بن العاص متى يتولى الإمامة فيه شيخ من فطاحل شيوخ الاسلام من ذوى المراكز العالية والمراتب الكبرى ؟ فيضع بطاقته مفتخراً بأنه إمام جامع عمرو وخطيبه قبل وظيفته الرسمية العالية ، حينئذ يأتى الكبراء إليه ويزدحم المسجد العتيق بجماهير المصلين ليؤدى لهم بحق رسالة الاسلام .

أما جامع ابن طولون فمتى يعود لسابق عهده ، فمتى تعلق ستائره وتفرش أرضيته بالأبسطة والطنافس ومتى تعود أيامه وتوقد القناديل فيه ؟ إنهم يرونه أثراً من آثار الجاهلية الأولى كمابد الكرنك وإدفو ، وأراه دعامة من دعائم الاسلام فى هذا البلد المسلم . إنه ينتظر عالماً كبيراً بمنزلة القاضى بكار ، يرج بصوته الجهورى أركانه ويدعو فيه إلى ذكر الله ويعلم الناس فى أروقته الكتاب والدين والتقوى . وإذا سألتنى ومن يأتى إليه ؟ أجبتك إن شخصية الامام العامل العالم تكفل لك أن تنقل المسجد الجامع من معبد أثرى إلى بيت من بيوت الله ، حينئذ يؤمه الألوف لسماع ذلك النداء الخالص الذى يدعو إلى الرسالة المحمدية .

وإذا ذهبت إلى حىّ العباسية مخترقاً الظاهر قابلك الجامع الظاهرى ، مفخرة العمارة الاسلامية فى العصور الوسطى . لو كان ملكا لشعب من أصغر شعوب الأرض لما قبل أن يتركه على هذه الحالة . بالله هل سمعتم أن كاتدرائية ريمس حينما هدمتها الحرب الأولى أو كاتدرائية وستنمستر حينما هدمتها الحرب الثانية ، اتخذ الناس أرض الأولى متنزها والثانية مرتعاً ؟ أما فى مصر ، فقد انفردنا بهذا الفتح إذ جعلنا الجامع الظاهرى الذى بناه أعظم ملوك الإسلام متنزهاً فى حى أشعر أنه بحاجة لمسجد جامع يؤمه الناس . إن أهل العباسية فى مجيئهم من محطة باب الحديد إلى مساكنهم ، لا يشعرون بشىء من الخجل حينما يرون المعابد العالية التى يقوم بالإنفاق عليها أفراد من مختلف الطوائف ، وأن مسجدهم لعظيم يتخذ متنزهاً ؟

حينما أعادت فرنسا كاتدرائية ريمس ، توالت عليها التبرعات من جميع أنحاء الأرض ، ولو رغبت وزارة الأوقاف فى إعادة جامع الظاهر أظن أن الكثيرين من عشاق الفن الإسلامى لا يتأخرون عن مد يد المساعدة إليها وسيكون لنا عودة لهذا الجامع فنذكر ما مر به من حوادث الزمن .

« وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم » .

إن الطوائف الأخرى تقيم أعيادها واجتماعاتها فى معابدها ، ونحن معاشر المسلمين ، فى حاجة للرجوع إلى المساجد فى هذه المناسبات ، وليس فى ذلك من حرج ، لأن ذلك كان سنة من تقدمنا — ذكر ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات فى تاريخه عن حوادث رمضان سنة ٦٧٧ أنه بمناسبة مرور سنة على وفاة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس « عملت غدة أعزية بمدرسة

الإمام الشافعي رضى الله عنه وجامع أحمد بن طولون والجامع الظاهري بالحسينية[1] والمدرسة الظاهرية[2] والمدرسة الصالحية النجمية[3] ودار الحديث الكاملية[4] بين القصرين والخانقاه الصلاحية برحبة باب العيد والجامع الحاكمي داخل القاهرة المحروسة وذكر الختمات التي قرأت والخيرات التي عملت ، وفي ذلك دليل على أن المآتم كانت تقام بالمساجد وكان الناس يجلسون للعزاء ، وكانت تقام فيها صلاة الغائب وينادى بالنعي من المآذن .

فهل هناك ما يمنع من الأخذ مرة أخرى بتلك السنن ، وأن يجتمع الناس بالمساجد الجامعة في أحيائهم لذكرى المولد النبوي ، وللاحتفال بأعيادهم ؟ لا أجد نصاً واحداً يمنع الأخذ بذلك ، بل قد رأيت طول القرون الماضية مايؤكد المنزلة التي كانت للمساجد الجامعة في مصر وغيرها .

ذكر صاحب الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، حديثاً طويلا عن الخطباء ، الذين أمرهم السلطان النوري أن يخطبوا بين يديه في أيام الجمع ، يفهم منه الاهتمام الكبير الذي كانت توليه الدولة المصرية في عهدها الإسلامي العربي لشؤون الخطابة في المساجد الجامعة . ولذلك لا نختلف مع نظرية محمد الله صبحي بك في شيء بل إن الفكرة تستند على ماض طويل ، وتحتاج أولا إلى من يحييها ثم من يجعلها ملائمة لتطور الزمن .

ونقول بكل صراحة : إن مظاهر الضعف والتفكك والتدهور الأخلاقي البادية في صفوف المسلمين المعاصرين ، ترجع إلى اعتكاف علماء الدين ، وإلى اتخاذهم المكاتب والحجرات بدل المساجد ، ولو نزلوا إلى الشعب الإسلامي كما نزل الرسول وأصحابه والتابعون وتابعو التابعين ، وتولوا الإمامة والخطابة بأنفسهم ، لخلقوا حول المساجد هالة من التقديس والاحترام ، ولأصبحت المساجد الجامعة في قاهرة المعز لدين الله ، عامرة آهلة بألوف المصلين من عباد الله .

إن المساجد الجامعة بيوت الله ، يجب أن يعمل علماء الدين على اجتذاب الناس إليها ، وأن يربى الطفل والطفلة والشاب والفتاة والنساء والرجال على المداومة على الذهاب إليها ، وأن يكون الإمام والخطيب رجل دعوة وإيمان وعلم وجرأة ، عالماً بشؤون الدنيا بقدر علمه بشؤون الدين ، أعظم صفة لديه «الابتكار» وأن يفيض قلبه بمحبة الشعب ودعوة الناس وخدمتهم وإقالة عثرتهم ، فيقول للحيارى تعالوا : هذا هو بيت الله وهذا هو دينه وهذه شريعته وهذه سيرة رسوله ، « وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم » .

تمر الأيام سريعاً ويتطور العالم ويسير ويواجه أزمة وراء أزمة ، فهل نعيش لنرى ذلك اليوم في مساجد الله ؟ وهل سيسمع لنا نداء ؟ أم سيخرج من صفوفنا نحن الذين لم نلبس العمامة من يقوم بهذا الفرض الاجتماعي ويدعو لهداية الله ويحمل الأمانة التي تخلى عنها رجال الدين ؟

هذه أسئلة يجيب عنها المستقبل ...

أحمد رمزي
القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

(١) الآن حديقة عامة .
(٢) زالت للأسف مع الوجود .
(٣) الباقي منها قليل وأرضها عمارات ومساكن .
(٤) الباقي منها الواجهة فقط .

نشر بإعلان ٤٩٧٤ بالعدد ٦٦١ وتطلب المواصفات نظير دفع مبلغ جنيه ، ٥٠٠ مليم والصواب ٥٠٠ مليم فقط ؟

الفتح الاســـــلامى

للأستاذ على الطنطاوى

لما وثب الألمان تلك الوثبة ، فطحنوا جيوشاً ، ودوّخوا ممالك ، وطمسوا فى مصو ر أوربّة حدوداً ومحوا دولا ، وأخذتهم العزة بالإثم والعدوان ، فقال فرعونهم : أنا ربكم الأعلى ! ...

وقام من بعدهم اليابان ، فقفزوا كالجنّ على جزر المحيط ، وحازوا أطراف المشرق ، وتمّ ذلك فى اللمحة الخاطفة ، كأنه حلم نائم ، أو كأنه سحر ساحر ...

... أذاع مذيع (عربى ...) من محطة لست أسمّيها ، يمجد هذا النصر ، ويفرغ فيه كل ما يملأ رأس الضعيف من الاعجاب ببطولة القوىّ ، وكان مما وسوس له به شيطانه أن قال : (هذا هو الفتح ، لا فتوحاتنا التى لم نملّ من الفخر بها وقد مضى عليها ألف وثلثمائة سنة) !

وقالوا : ردّ عليه ، وضَعْ فى فمه حجراً . قلت : لا ! إنه لم يأنِ أوان الردّ عليه ، فانتظروا ، فانها ستردّ عليه الأيام .

وها هى ذى الأيام قد قالت فأبلغت ، وردّت فأفحمت ، ولكن أين ذلك المذيع ليستمع ويفكر ، فيرى فتوح هتلر كفتوح تيمورلنك ، عاصفة عاتية مدمرة ، تهب على الكون فتقتلع الأشجار ، وتهدم البنى ، وتدحرج الصخور ، ثم تضعف العاصفة وتضمحل ، ولا تدع وراءها إلا الموت والخراب والفوضى! وما أسهل الهدم ، وما أهون القتل ! إن كلباً عقوراً يقتل أعظم نابغة فى الدنيا . وأكبر عالم فى الأرض لا يستطيع أن يخلق ذبابة . والبناء الفخم الذى ينشئه مائة مهندس بارع ، يهدمه اللص بقنبلة واحدة ، أو يحرقه بعود كبريت ... والسفينة المدرعة العظيمة التى يجتمع على إنشائها الآلاف ، ويمضى العمر ، يغرقها مجنون فى ساعة ... كذلك كان فتح تيمورلنك وهتلر ... وأين اليوم هتلر وتيمور ومن كان بينهما من فاتحين وغزاة مظفرين ؟ وأين من كان قبلهما ؟ لقد طواهم الزمان ، فلم يبق منهم إلا قبور تحتها رفات رميم ، أو صحائف فيها مجد ميّت ، وربما أغرقهم النسيان فى لجته ، فلم يمنحهم قبراً على الأرض ، ولا ذكراً فى التاريخ ... وكذلك الفتوح التى تفخر بها الأمم ، ويشغل بها الطلاب فى المدارس ، كلها فتوح قوة وتغلّب ، فإذا ضعف القوىّ ، أو قوى الضعيف ، عاد الغالب مغلوباً ، والمغلوب غالباً .

أما (الفتح الاسلامى) فنسيج وحده فى تاريخ البشر ، لا يشبهه فتح ولا يدانيه ولا يقاس به . إن هذا (المذيع) رأى جانباً واحداً منه ، وخفيت عنه جوانب : رأى الظفر فى المعارك والغلبة فى الميادين ، فقاسها على أشباهها ونظائرها ، وتحكم فيها بما أوصله إليه عقله ، وما دفعه إليه هواه ... أما الجوانب التى لم يرها ، فقد وصفها الامام العبقرى ابن تيمية بكلمة جامعة ، لو كان إعجاز بعد القرآن ، لقلت إنها من معجزات البيان ، هى : (إن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأمم ، ولكن نقلوا الأمم إلى الإسلام) . إن فى هذه الكلمة القصيرة سرّ الفتح الإسلامى ومزاياه وعلة بقائه واستمراره ، وهاك بعض البيان :

إنها لم تدر فى الأرض رحى الحرب ، ولم يطأها جيش فاتح ، إلا ابتغاء أرض يضمها الفاتح إلى أرضه ، أو شعب يحكمه مع شعبه ، أو غنائم بنالها ، أو ثأر يطلبه ، أوخيرات يستولى عليها ، أو كنز يملكه ، هذه هى غايات الحروب ، وهذه مقاصد الفاتحين .

أما المسلمون فقد خرجوا يُعلنون كلمة الله ، وينشرون دينه ، يبذلون فى سبيل ذلك دماءهم وأرواحهم ، ويفارقون من أجله ديارهم وأولادهم ، لا يريدون علواً فى الأرض ولا استكباراً ، ولا يبتغون دنيا ولا يريدون مالا . وهذه هى المزية الأولى .

وكانت غايتهم إصلاح البشر فى أخلاقهم ومعايشهم ، وسعادة الناس فى دنياهم وآخرتهم ، فكانوا يحملون إليهم مفتاح هذه السعادة ، وهو القرآن ، فان كانوا عقلاء وقبلوا الهداية واستجابوا لها ، وارتضوا هذه السعادة ورحبوا بها ، كفّوا عنهم فلم يقاتلوهم ، وإن لم يقبلوا وركبوا رؤوسهم عناداً ، ولم يحبوا أن يجلبوا لأنفسهم النفع ويمنعوا عنها الضرر ، عدّوهم كالأولاد القاصرين أوالمتوهين والمجانين ، لابد لهم من وصىّ يقوم عليهم ، ويصرّف شؤونهم فيما فيه صلاحهم ، وفرضوا عليهم أجرة قليلة هى كأجرة الوصىّ الأمين ، فإن دفعوها برضاهم قبلوا منهم ، وإن والوا عنادهم وأبوا إلا الإفساد فى الأرض ، وأذى أنفسهم

وإخوانهم فى الإنسانية ، دعوهم إلى الحروب ، لأن الإسلام يرى البشر كلهم كراكبى السفينة إذا أراد أحدهم أن يخرق موضعه ، كان عليهم أن يمنعوه ويكفوه ويضربوا على يده ، لئلا يهلك نفسه ويهلكهم معه ، فكأن الإسلام وصل منذ أربعة عشر قرناً ، إلى ما تسمى إليه الآن ولا تدنو منه (هيئة الأمم المتحدة) . وهذه هى المزية الثانية .

وكانوا إذا حاربوا ، حافظوا على شرفهم ، وأقاموا على كرمهم فكانوا أشرف محاربين عرفهم ظهر هذه الكرة ، لا يغدرون ولا يمثلون ، ولا يجهزون على جريح ، ولا يحاربون امرأة ، ولا يعرضون لعاجز ، ولا يمسون معبداً ولا يؤذون متعبداً ، ولا يخربون داراً ، ولا يفسدون ماء ، وإن هذه الخلائق فى الحرب لتعدّ غريبة فى هذا القرن ، الذى يسمونه (قرن العشرين) ، ويزعمون أنهم بلغوا فيه نهاية الارتقاء ، وذروة المدنية ، فكيف وقد جاءت فى القرون (المظلمة ! !) التى يسمونها القرون الوسطى ؟ ! هذه الثالثة .

ولم يكن يلهيهم عن غايتهم مال ، ولا يشغلهم جاه ، ولا ينسيهم هذه الغاية خطر ، فكانوا إذا اشتد الخطب ، وادلهمت المعركة وعبست ، يلجأون إلى الله الذى حاربوا من أجله ، وقاتلوا فى سبيله . هذا قتيبة بن مسلم الفاتح المظفر ، يثب عليه كمين من الترك ، ويقع بين حجرى الرحى ، فيقول : انظروا إلى محمد بن واسع ماذا يصنع ؟ فيقولون : هو قائم هناك يشير بأصبعه نحو السماء ، فيشرق وجهه ويطمئن ، ويقول : والله لهذه الأصبع أحب إلىّ من عشرة آلاف سيف يشهر ، أقدموا على بركات الله .

وكانوا يعملون لله وحده ، لا للجاه ولا للذكر . هذا بطل الدنيا وعبقرىّ الحروب خالد ، يعزله عمر فيقاتل جندياً كما كان يقاتل قائداً ، لأن الله لا يجزى القواد وحدهم ولكنه يجزى كل عامل مخلص . وهذا رجل لا يعرفه أحد ، يفعل الفعلة التى تكسبه مجد الدهر ثم يخفى اسمه ولا يعلنه ويقنع بثواب الله : يلقى المسلمون فى معركة من المعارك شدة وكيداً من أحد أبطال العدو ، فينادى قائدهم إن من قتل هذا الرجل فله ألف دينار ، فلا يصبحون إلا ورأسه ملقى فى خيمة القائد ولا يعرف من قتله ، ويسألون فلا يجابون ، فيقوم القائد فيقول : أنشد بالله من فعل هذا ، إذا كان يسمع كلامى ، إلا خرج إلىّ . فيخرج رجل لا يعرفونه ، فيسأله : أأنت فعلت هذا ؟ فيقول : نعم . فيقول : خذ الجائزة فيأبى ، ويقول : إنما فعلت ذلك لله وحده . فيقول له : ما اسمك؟ فيقول : وما لكم ولاسمى ، أتريدون أن تنشروه فى الناس ، فتضيعوا علىّ ثوابى ، وتفسدوا علىّ نفسى ، دعونى .

ووقعوا — وهم المصحرون المدمون ، الذين كانوا يأكلون القد ، ويتبلغون بالتمرة — وقعوا على كنوز كسرى ، وإن الحبة الواحدة منها يأخذها الرجل تغنيه وتغنى ولده من بعده ، وما يراه إلا الله ، فلم يغلّوا منها شيئاً وأدّوها كاملة ، لأن نبيّهم نهاهم عن الغلّ ، ولأنهم إنما خرجوا لله ، لا للمال ولا للكنوز! هذه الرابعة.

ثم إنهم إذا دخلوا بلدة لم يحملوا إليها الاسلام فى محاضرات يلقونها ، ونشرات يذيعونها ، وكتب يطبعونها ، فيكونوا هم الأساتذة أبداً ، وأولئك كالتلاميذ ، ويكونوا المتقدمين إلى كل خير ، والمستأثرين بكل نفع ، لا ولكنهم يدلون أهلها على منابع الإسلام ، ويرشدونهم إلى الكتاب والسنة ، ثم يتركونهم لينتقلوا هم بأنفسهم إلى الإسلام . فلم تمرّ برهة حتى سبقوا العرب وبذوهم ، وكان منهم أئمة الدين ، وعلماء القرآن والحديث والفقه وعاد العرب الفاتحون وجلسوا بين أيديهم ، وتتلمذوا عليهم ، وأخذوا الدين عنهم . وهذه الخامسة .

ثم إن الفاتحين الأولين ، لم يعلنوا عن الإسلام بألسنتهم ، ولم يدعوا إليه بأقوالهم ، ولكن أروا الناس فى أخلاقهم ومعاملاتهم وسيرتهم أمثلة من أحكام الإسلام ، فحببوه بذلك إليهم ورغّبوهم فيه ، وها هم أولاء فى حمص بعد أن فتحت لهم ودخلوها وأخذوا الجزية من أهلها ، يبلغهم أن الروم قد توجهوا إليهم ، ويعرفون عجزهم عن مقابلتهم ، وحماية أهل البلد الذين صاروا فى ذمتهم ، ويعزمون على الخروج منها ، فيدعون البطاركة والرؤساء ، ويخبرونهم بعجزهم ويردون إليهم ما قبضوا منهم من مال الجزية كاملا فيبلغ العجب والإعجاب قرارات نفوسهم ، ويقولون : والله ما رأينا مثل هذا من الروم وهم أهل ملتنا ، وإن ديناً يأمر أصحابه بهذا لنعم الدين هو ، ولأنتم أحب إلينا منهم . هذه السادسة .

ولم ينجلِ الفتح ، عن غالبين ومغلوبين ، لا تزال تهيج بينهم الأحقاد ، وتضرم نيران الثورات والحروب ، كما هى الحال فى كل فتح ، وإنما انجلى عن أمة واحدة لها ربّ واحد ، ونبى واحد ، وكتاب واحد ، أمة مسلمة ، فلا عرب ولا فرس ولا روم ، ليس منهم من دعا إلى عصبيته ، بعد أن تبت يدا أبى لهب العربى القرشى الهاشمى عم النبىّ ، صلى الله عليه ، وكرمت أيدى بلال

الحبشي وصهيب الرومي وكان من أهل البيت الفارسي سلمان. هذه السابعة بهذا استقر (الفتح الإسلامي) وخلد، وبقيت هذه البلاد للاسلام إلى يوم القيامة، وإذا كانت أحياناً حروب عصبية ومعارك على الملك، فإنما كانت لمخالفة قواعد الإسلام، والدعوة إلى العصبيات والقوميات، وجعل الخلافة ملكا، وتحويلها وراثية كسروية، ولو بقيت بكرية عمرية، لما كان خلاف ولا نزاع.

هذه هي الجوانب التي لم يشهدها ذلك (الذبيع) ولم يعرفها، فحسب أن الفتح الإسلامي كفتوح هتلر، فتح غلبة وقهر ... كلا، إنما هو فتح هداية وإصلاح. على أننا كنا أقوى من جند هتلر قلباً، وأعظم بطولة، وأعجب نصراً، فلقد حارب هتلر بعدة ضخمة وعديد، وجيش مدرب شديد، ووسائل إلى التقتيل والتدمير يعجز عن تصورها إبليس، ثم غلب هتلر ووسائله وجيوشه، وقام العرب لفتح الدنيا أمام القرآن، وهم لا يملكون جيشاً مدرباً، ولا قائداً عسكرياً متعلماً، وما سلاحهم إلا سيوف ملفوفة بالخرق، ثم طحنوا بإيمانهم أعظم إمبراطورية في معركتين اثنتين، القادسية ونهاوند، وأزاحوا عن ظهر الأرض أثقل عرش، وخلصوا دنيا القرن السابع من جبروت كسرى وقيصر، ثم انتشروا في أرجاء الكون، من جنان الشام إلى سهول العراق ومصر، إلى صحارى أفريقية وتركستان، إلى جبال الألب والقفقاس، إلى جزر البحار إلى ثلج روسيا، إلى لظى الحبشة، لم يدعوا بقعة من الأرض إلا سكنوها وحكموا فيها باسم الله وبشرع محمد، وهم كانوا القابعين في رمال الجزيرة، يخشون تابعاً من أتباع قيصر في الشام، ويرجون تابعاً من أتباع كسرى في العراق، ويسمونه ملك العرب!

هذه هي مزية الفتح الإسلامي؛ فاذا كانت الفتوح عاصفة مدمرة فهو الغيث المرع، وإن كانت القتل والخراب والفوضى، فهو الحياة والبناء والنظام ... فيا أيها (الذبيع) قد بطل فخرك بفتح هتلر، وقد ذهب هتلر وفتوحه مع أمس الدابر، ولم يعقب إلا الفساد في الأرض، وسيذهب كل فتح قام على القهر واعتمد على الظلم ... ويظل (الفتح الإسلامي) راسخاً رسوخ الأرض، باقياً بقاء الزمان، ولا يزال مفخرة لكل من قال أنا إنسان!

فيا أيها المنتصرون؛ هاتوا مثل هذا الفتح، أو فاسكتوا، لا تفتخروا!!

(دمشق) **علي الطنطاوي**

الأدب في سير أعلام :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٣ —



البيوريتانية كمذهب :

يتلخص مذهب البيوريتانز في العقيدة الدينية ، في الإيمان بالقدر المحتوم ، ويرون وجوب خشية الله أشد خشية في عمق وإخلاص ، فالله وحده هو الحاكم ، وهو وحده القادر ذو الجبروت والجلال ؛ ويعتقدون أن معينهم الذي يجب أن يستقوا منه دينهم هو كلام الله كما ورد في الأنجيل ، فلا وساطة للكنيسة البابوية بشرح أو تأويل ؛ وهم ينفرون أشد النفور من الكنيسة البابوية لتحكمها في العقول وانغماسها في شؤون السياسة والحكم وأخذها بالبدع والضلالات ، واعتمادها على الزخرف والبهرج الزائف من النقوش والصور والغناء والتماثيل وما إليها من مظاهر الوثنية ؛ وبعد رجالها عن روح الدين ورسالته ، وإقبالهم على الحياة الدنيا وزينتها ، وانخداعهم بغرورها ومادتها ، وجرى الأشراف على كنائسهم وفق نظام « كاثن » ، فلا تكون الرياسة للقساوسة ، وإنما تكون لفريق منهم يختار ، ويشاركهم فريق من غير رجال الدين على نحو قريب من الديمقراطية بعيد كل البعد عن الاستبداد ؛ ويتمسك البيوريتاني بأهداب الدين ، ويحرص على العبادة ، ويغلو في ذلك كل الغلو ، فكل رب أسرة هو في الواقع قسيسها ومرشدها ومنفذ ما توجبه روح الدين فيها ، وقارئ الإنجيل ومفسره لأبنائها وبناتها ...

أما في السياسة ، فإن شعورهم القوي بأن الله هو الحاكم الأعلى ، وأنه القاهر فوق عباده ، الملوك منهم وغير الملوك ، جعلهم يستصغرون كل سلطة غير سلطته ، ويرون الناس جميعاً بالقياس إلى الله سواء ؛ وينفرون من كل استبداد أو إرهاب في أية صورة من صورهما ؛ وقوى هذه الروح عندهم شعور آخر هو تمسكهم بحرية الضمير في الفكر الديني بتخلصه من آراء الكنيسة ، وعلى هذا فحرية الرأي في السياسة جزء من هذه الحرية الفكرية التي بثها مذهبهم في نفوسهم واستمدها من التحرر العقلي العام الذي هو وليد النهضة والإصلاح الديني ، والذي هو مظهر من مظاهر شعور الفرد بشخصه وذاتيته بالنسبة للمجتمع كله ...

وفي آداب المجتمع نرى لهؤلاء البيوريتانز مبادئ خلقية يتمسكون بها تمسكهم بدينهم ويغلون فيها غلوهم فيه ، وعندهم أن الروح فوق الجسد ، فتطهير الروح من مفاسد الحياة لا يكون إلا بقهر الجسد وفطامه عن الشهوات ومحاربة الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولقد أسرفوا حتى كرهوا كل زينة وخافوا من كل متعة ، وعدوا طيبات الحياة مبعث النزوات ووسائل الشيطان وحبائله . والبيوريتان صريح شجاع حر الرأي ، إذ هو يميل إلى الطهر في كل شيء ، ويميل إلى النزاهة في جميع صورها ، ولذلك يطلب العدالة والحق قولا وعملا . وكما أن الأسرة البيوريتانية تأثرت بالدين نراها تأثرت كذلك بهذه المبادئ الخلقية ، فرأس الأسرة حريص على أن يغرس هذه الصفات في أفرادها في صرامة وحزم ، ولقد صبغ ذلك الأسرة البيوريتانية بصبغة خاصة في المجتمع الإنجليزي ...

وأثرت نزعتهم الدينية ومبادئهم الخلقية في نظرتهم إلى الفن

والأدب ، فمن حيث نزعتهم الدينية نجد انشغالهم بالدين ومايتصل به ، وتأثرهم بمذهبهم وتحمسهم له ، يصرفانهم عن التفكير فيما سواه من معرفة أو أدب أو فن ، مما يتصل بالحياة الدنيا ومسائلها ؛ بل لقد كرهوا هذه الأشياء وخافوا مغبتها على عقيدتهم ومذهبهم ومالوا إلى حصر الأدب فى أضيق نطاق له . وعندهم أن فى الإنجيل غناء عن كل كتاب غيره ، وحاربوا فى شدة وعنف دراسة آداب الإغريق لما فيها من وثنية ومادية ورجس من عمل الشيطان ..

ومن حيث مبادئهم الخلقية نجدهم يحاربون الفنون فى ضروب تعبيرها ، لأنهم يعدونها لهواً ولعباً من غرور الحياة وفتنتها ، فلا يقرون التمثيل ، بل يرون فيه أنواعاً من الإغراء والفتنة تسوق إلى الفجور والضلال ؛ وهم بالضرورة يمقتون الرقص ويعدونه فسوقاً وضلالا بعيداً وحيوانية جامحة ؛ وينظرون إلى الموسيقى نظرة أخف حدة من نظرتهم إلى المسرح والرقص ، فإذا كانت للعبث واللهو والفتنة ، فهى باطل وإثم ، وإذا ذهب الناس إلى الكنيسة ليستمعوا إلى الموسيقى فحسب ، وهم منصرفون عن العبادة بعيدون عن الخشوع ، فوجب إبطالها من الكنيسة .

وكره البيوريتانز إلى جانب ذلك التصوير والنقش والحلى والزينة وما يتصل بالجمال ، لأنهم يرون فى ذلك مدعاة للترف وصلة قوية بالدنيا توبق الروح وتميت فى القلوب الورع والخشوع

هذا هو الجانب السيئ من البيوريتانية ، وأى شىء أسوأ من أن تكون حرباً على الأدب والفن والمعرفة إلا ما كان معرفة دينية تستمد من الأنجيل ؟

ولم يقتصر الأمر على هذه العيوب الأساسية فى البيوريتانية ، بل إن المذهب نفسه قد تطرق إليه الفساد ، شأن كل مذهب ينشأ قوياً صالحاً ، ثم يجر إليه الغلو والجهل وسوء الغرض ما يبعد به كل البعد عن حقيقته حتى ليقلب كل حسنة من حسناته إلى سيئة وبيلة

فأول ما دخل عليه من فساد هو التعصب ، فقد انقلب التحمس للمذهب والغلو فى الدفاع عنه تعصباً فيه الزراية بغيره ، وإنكار كل حق إلا ما يراه أصحابه أنه الحق ؛ وتبع ذلك التمسك بالشكل دون الجوهر فى كثير من المواقف

وتطرق إلى بعض النفوس النفاق ، فأصحابها يظهرون فى العلن التمسك بالمذهب ، ويأتون فى السر ما ينكره ذلك المذهب أشد الإنكار ، وشاع الحق والغضب وحدة الجدل وسرعة التخاصم والتنابذ بين فريق من البيوريتانز الغالين فى مذهبهم وبين الناس ، وأساء هؤلاء بلا ريب إلى أصحاب المذهب جميعاً ، إذ يحسبهم الناس كلهم من هذا الطراز ...

وظهر بعض البيوريتانز بمظهر الضعف العقلى لجفائهم المعرفة كما ظهرت فى بعضهم الجلافة والغلظة لأنكارهم الفنون ونفورهم من الجمال .

إلا أنه لا يجوز أن نحكم على هذا المذهب بما تطرق إليه من فساد ؛ ولئن كان فيه ذوو العقول الضيقة - والحق والمتعصبون والمنافقون ، فلقد جاء إلى المجتمع بمبادىء سامية وبث فى النفوس الحمية والأقدام وحبب إليها الحرية .

هذه هى البيوريتانية أو هذا هو الصيف الصارم العابس الذى يمثل عصر ملتن والذى أعقب ذلك الربيع الطلق الزخى الذى يمثل عصر شكسبير ؛ وبين الربيع الراحل والصيف القادم ولد ملتن كما أسلفنا عام ١٦٠٨ ، ولد والبيوريتانية تستقبل فتوتها ، وسيستقبل كذلك فتوته ويبلغها إذ تبلغ البيوريتانية أشدها ، فيكون شاعرها الفذ الذى تتمثل فيه روحها فى أسمى أوضاعها وأجل صورها ، والذى يجتمع فى فنه جمال الربيع الراحل ، وجد الصيف القادم .

طفولة ملتن ونشأته

انتصف الليل أو تجاوز المنتصف ولا يزال صبى جميل فى الثانية عشرة من عمره جالساً إلى مكتبه فى حجرته الخاصة به فى بيت أبيه بلندن يفرك عينيه الواسعتين الجميلتين بيديه الصغيرتين ، وقد أخذ النعاس يداعب جفنيه ، وأخذ الكلال يغمض مقلتيه ، والمصباح يكاد زيته ينفد ، بعد ساعات طويلة لم يكد يحول فيها الصبى عن الكتب بصره ، وذلك دأبه فى أكثر لياليه . وجلست على مقربة من الصبى إحدى الخادمات وقد أمرها أبوه أن تظل بقربه حتى يأوى إلى مضجعه ؛ وقد أوى أبوه إلى مضجعه منذ

وقت غير قصير بعد أن عزف بعض ألحانه الجديدة والقديمة كما يفعل كل ليلة ما عدا ليلة الأحد ؛ وإنها لتعجب من إقبال الصبي على كتبه واستغراقه في قراءته على صورة لم تشهد مثلها قبل في صبي مثله لم يتجاوز الثانية عشرة .

وماذا يقرأ الصبي في تلك السن ؟ أيقرأ القصص الخرافية وحكايات الجن وأشباهها مما يقرأ أنداده في مثل سنه ؟ لا فهو لا يحب هذا النوع من الكتب كثيراً كما يحبها الصبية من أقرانه ؛ ومثل هذه الكتب لا تكون إلا للتسلية ، ولن يكون من أجل التسلية هذا السهر الذي تكاد تعشى منه العينان .

كان الصبي يقرأ كتب الأدب وعلى الأخص الشعر ، وكان يقرأ التاريخ على قدر ما تسمح سنه ، ويدرس اللغات اللاتينية والعبرية واليونانية والطليانية . وفي ليالي الآحاد حين كانت تجتمع الأسرة حول الموقد ، كان يستمع الصبي إلى ما يذكر أبوه عن آخر لحن له من ألحان الموسيقى ، إذ كان يشغل الأب نفسه بالموسيقى كما كان يشغل الابن نفسه بالقراءة ، وكان لأبيه في صوغ الألحان حس مرهف وذوق مهذب وإن لم يك طويل الباع ؛ كما كان له إلى قرض الشعر ميل ، ولكنه سرعان ما انصرف عن الشعر إلى الموسيقى إذ أعيته معاناة قرضه من أول الأمر ...

وإنه ليعجب إذ يستعصى عليه الشعر ، وهو يجده سهل الانقياد إلى ابنه منذ سن العاشرة ! وها هو ذا ابنه الآن في الثانية عشرة يسمع أباه وأصحابه من نظمه ما يطربون له جميعاً وعلى الأخص أبوه ؛ وكان ينظر إليه أبوه في تلك الليالي التي يخلوان فيها من الجد ، ويجلسان قرب الموقد نظرات ملؤها الإعجاب والمحبة ؛ ويقول لمن حوله : لقد كنت أريد أن أجعل منه كاهناً ثانياً بتوجيهه الوجهة الدينية وإلحاقه بالكنيسة ، فإذا به ينفر من هذا ويأبى إلا أن يجعل من نفسه هوميروس آخر ، ولست أحب أن أميل به إلى غير ما يريد ويهوى ، ولئن فعلت ذلك فما آتى غير العبث ، فليمض فيما هو فيه من شعر وأدب .

ويرهف الرجل أذنيه إلى ابنه إذ يتكلم أو يقرأ الشعر فتملأ نفسه الغبطة ، فلهذا الغلام الجميل المحيا ، فضلا عن ذكائه ورشاقته ، صوت حلو النبرات ، موسيقى الجرس ، وكأن مقاطع كلامه أسجاع مفصلة ؛ وإن أذنى أبيه لتحسان ذلك إحساساً صادقاً ، فليس يلقى ذلك في روعه فرط محبته إياه ، ولا هي أمنية يخالها حقيقة كما عسى أن يتوهم الآباء من صفات ينسبونها لأبنائهم وإن لم يك لهم منها شيء .

وطالما أرهف الصبي أذنيه إلى ألحان أبيه فطرب لها قلبه واستقرت نغماتها في أعماق نفسه ؛ وإن أثر هذه الألحان ليبدو جلياً في أشعاره الأولى وهو بعد غلام ، فأخص ما يميزها موسيقى حلوة تختلط بالنفس ، حتى ألفاظه فإنك تحس في كل لفظ منها سحر الموسيقى ، وتجده منذ أول شوط له قادراً على أن يختار اللفظ الذي يؤدي المعنى إلى الذهن ويطرب بوقعه وجرسه النفس .

كان أبوه موثقاً وتلك هي حرفته التي اكتسب منها ماله ، أما الموسيقى فكانت هوايته ؛ وكان يكتب للناس الوثائق والعقود والظلامات وغيرها من ضروب الكتابة ، وكان الموثق في تلك الأيام رجلا عند الناس عالي المكانة ينظر إليه عامة الناس إلى عالم خبير ، إذ لم يكن الأمر مجرد الكتابة ، وإنما كان نوعا من الكتابة يقتضي معرفة الصيغ الخاصة والعبارات التي جرى بها العرف ، وذلك كله يطلب عند الموثق وله أجره على ما يكتب ؛ وبقدر ما يتفق له من طالبي خبرته يكون كسبه ؛ ولقد مهر الرجل في عمله وبات بحرفته ينعم برغد العيش .

واحترف الموثق حرفته في لندن ؛ وقد جاءها منذ أن طرده أبوه من بيته ؛ وكان أبوه يعيش على مقربة من أكسفورد ، وكان مزارعا من ملاك الأرض يتعصب للكاثوليكية تعصباً شديداً ، فلم يعجبه من ابنه ميله إلى البروتستنتية وإقباله على البيوريتانية وعد ذلك منه مروقا من دينه وعصياناً لأمره ، ولما لم تجد معه حيلة طرده ساخطاً عليه . فلما جاء لندن اشتغل بالتوثيق فنبه فيه شأنه ، وبنى له بيتاً تمتع فيه بهدوء الحياة ونعم بالطيبات من الرزق .

وكانت لندن غداة شخص إليها في ربيع العصر الأليزابيثي ؛ فلم تشغل الموثق جون ملتن حرفته عن الأدب والفن والعلم فأخذ من كل بطرف .

(يتبع) **الخفيف**

أوهـــام آثارية

الأستاذ صلاح الدين المنجد

العادلية أم الأشرفية ؟ — سنان المهندس أم سنان باشا الوالي ؟ — النصب التذكارية — قصير عمرة ، أهو حمام أم قصر ؟ تاريخ بناء مسجد نور الدين في الموصل .

١ — العادلية أم الأشرفية :

ذكر العلامة الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام بك فى مقاله المسمى « فى عيد المعرى » المنشور فى هـذه المجلة (العدد ٦٠٠) ما نصه :

« واجتمعنا ، نحن وجماعة من علماء الشام وأدبائها أعضاء المجمع ، فى دار المجمع ، وهى المدرسة الأشرفية التى بناها الملك الأشرف الأيوبى . اهـ » .

قلت : دار المجمع العلمى بدمشق ، هى المدرسة العادلية ، وهى غير الأشرفية . وتنسب إلى الملك العادل سيف الدين أخى صلاح الدين . كان نور الدين أول من بدأ بها ، فمات ولم يتمها . ثم شرع الملك العادل سنة ٦١٢ هـ ببنائها ، ومات سنة ٦١٥ هـ ولم يتمها . فأتمها من بعده ابنه الملك المعظم .

وقد ذكرتها أمهات الكتب كلها باسم العادلية .

أما الأشرف الأيوبى ، فلم يبن العادلية ، وإنما بنى دار الحديث الأشرفية الجوانية ، وهى « جوار باب القلعة الشرقى ، غربى العصرونية » وما تزال قائمة . ودرس بها فى أيامها ابن الصلاح وأبو شامة وغيرهما .

وبنى الأشرف مدرسة ثانية هى دار الحديث الأشرفية البرانية وهى فى السفح شرقى المرشدية ، وغربى الأتابكية .

(وإن شئت التفصيل فانظر من المخطوطات : النعيمى فى إرشاد الطالب ، والعلموى فى مختصر النعيمى ، وبدران فى منادمة الأطلال ، وبدران فى مختصر المنادمة ، وابن طولون فى تاريخ الصالحية ، وابن كنان فى المروج السندسية . ومن المطبوعات : بالعربية : ابن كثير فى البداية والنهاية ج ١٣ ص ٦٨ ، وبالفرنسية المبانى الأيوبية بدمشق لسوفاجه ج ٢ ص ٧٦ ، ومبانى دمشق التاريخية المؤلف نفسه ص ٦٢ ، وبالألمانية : وتزنجر وولزنجر E. 3, 5. يمكن مراجعة سوفير فى المجلة الآسيوية : مايس وحزيران سنة ١٨٩٤ . الفصل الثالث ص ٤٢٣) .

٢ — سنان المهندس أم سنان باشا الوالى ؟

وذكر فضيلة الأستاذ الشيخ على الطنطاوى فى مقاله الممتع عن (دمشق) المنشور فى العـدد ٦٥٨ من الرسالة الغراء ، أن مسجد السنانية سمى نسبة إلى سنان المهندس التركى المعروف .

قلت : المعروف أنه ينسب إلى بانيه سنان باشا ، نائب الشام والوزير الأعظم . ولى الوزارة للسلطان مرادخان ، ومات سنة (١٠٠٤) هـ . وقد بدأ بعمارة مسجده هذا سنة ٩٩٥ هـ ، وتمت عمارته سنة ٩٩٩ هـ .

أما سنان المهندس ، فهو الذى وضع تخطيط التكية السليمانية التى قامت مكان القصر الأبلق الذى بناه الملك الظاهر بيبرس فى المرج الأخضر .

(انظر للتفصيل : المنادمة لبدران ، ومختصر المنادمة له ، وذيل العلموى للعدوى ، وكتاب الباشات والقضاة لابن جمعة ، وولزنجر ووتزنجر D. 5. 8 ، ومبانى دمشق التاريخية لسوفاجه ص ٧٨ ، ٨٤) .

٣ — النصب التذكارية :

وذكر الدكتور زكى محمد حسن فى مجلة الكتاب الزاهرة فى مقال له عن قصور الأمويين أنه لا يوجد نصب تذكارية لتخليد انتصارات العرب .

قلت : فى دمشق ، فوق ذروة من ذرى قاسيون ، بناء مربع مفتوح الجوانب ، فوقه قبة . كانت من متنزهات الصالحية ، لاشرافها على الربوة ، وعلى دمشق ، اسمها قبة النصر ، بناها نائب الشام برقوق الذى قاتل سوار بك فأخـذه غدراً ، ثم أقام هذه القبة سنة ٨٧٧ هـ ذكرى انتصاره ، وقد ذكر هذا ابن طولون .

(انظر للتفصيل : تاريخ الصالحية لابن طولون ، المروج السندسية لابن كنان ، المبانى التاريخية بدمشق ص٥ ١ السوفاجه وولزنجر ووتزنجر Dn Iv a ويمكن مراجعة :

Sauvaget un Monument Commémoratif d.époque Mamloukc dans les environs de Damas

– قصير عمرة ، أهو حمام أم قصر ؟

وأدخل الدكتور زكى محمد حسن ، فى مقاله عن قصور الأمويين ، المنوه به فى الفقرة السابقة ، أدخل قصير عمرة ، وحمام الصرخ فى عداد القصور .

أما حمام الصرخ ، فاسمه حمام ، ولا محل لدسه بين القصور ، بقى قصير عمرة ، فما هو ؟

لقد أصر الدكتور على جعله أو سرده مع القصور لأمرين :

١ — لأن علماء الآثار ساروا على ذلك .

٢ — لأن فيه ، وفى حمام الصرخ قاعات استقبال (؟)

قلت : قول الدكتور لا يطمئن إليه ، فالرجل ذو الفكر الناقد لا يجعل الحمام قصراً ولو قال ذلك أكبر العلماء الأجانب . لأن قولا كهذا يجدر التروى فيه قبل نقله . فالدراسات الآثارية الحديثة أجمعت على جعل قصير عمرة حماماً لا قصراً ، وأن أمام هذا الحمام كان قصر فتهدم واختفت معالمه . (انظر مجلة المجمع العلمى بدمشق . المجلد السابع عشر مايس حزيران سنة ٩٤٢) .

إن تخطيط قصير عمرة ، وحمام الصرخ يدل على وجود غرفة كبيرة واسعة فى كل منهما ، وقد ظن بعضهم أنها غرفة استقبال (!) ونقل الدكتور هذا الظن . أغرفة استقبال فى حمام ؟ أمر عجيب . على كل أنا أشك فيما نقله الدكتور ، وأشك أن تكون غرفة استقبال ، ولن يجد الدكتور أى نص قديم صحيح يثبت ما ذهب إليه ، ويؤيد أن خليفة استقبل الناس فى حمام .

والأقرب للعقل أن تكون هذه الغرفة الواسعة للاستراحة بعد الاستحمام أو للهو واقتناص اللذة قبل الاستحمام ، أو للأمرين معا ، فالملوك لا يستقبلون فى الحمامات .

إن وجود هذه الغرفة الواسعة فى الحمام لا يجعل الحمام قصراً ، فالحمام الأموى الذى كشف فى جبل سيس فى بادية دمشق ، يشبه تخطيطه قصير عمرة والصرخ تماماً . وبرغم الغرفة الواسعة فيه لم يقل أحد إنه قصر ولا جعله فى عداد القصور (انظر : Sauvaget les ruines Omayyades du djebel Seis) .

وفى دمشق حمام اسمه حمام السروجى ، فيه غرفة واسعة تشبه تماماً غرفة قصير عمرة ، وقد لاحظ هذا ايكوشار ، ومع ذلك فلم يجعل أحد هـذه الغرفة غرفة استقبال أو يجعل الحمام قصراً . وأنت واجد مثل هذا فى أغلب حمامات دمشق (انظر : Ecochard et lecoeur les Bains de Damas) .

على أن ما يؤيد ما ذهبنا إليه ، من أن هذه القاعة الواسعة فى قصير عمرة ليست للاستقبال ، وجود مشاهد مثيرة على الحيطان ، لا يمكن أن يضعها خليفة فى قاعة يستقبل بها الناس . فمن هذه المشاهد : مشهد امرأة ذات قامة فارعة نصفها الأعلى عار رفعت يديها فوق رأسها المحاط بضفائرها ؛ ومشهد آخر يمثل امرأة عارية تماماً يبدو جسمها كله وهى ترقص وتقوم بحركات تظهر فتنة جسمها . ومشهد ثالث يمثل امرأة مستلقية فى سريرها ، وضعت يدها على ذقنها وأخذت تنظر بيأس . ومشهد رابع يمثل امرأة عارية ، يخفق ثوب شفاف عند سيقانها ، وهى مستندة إلى نضد ، كفها اليسرى على ذقنها ، تحلم وترنو إلى رجل فى الطرف الثانى ، مستلق يتأملها أيضاً ويرنو إليها ، وغير ذلك . (انظر : Gaussen et Savignac Mission Archeologique eu Arabie 111 Les Châteaux Arabes Qeseir Amra Haraneh et Tuba PP 87—92.

وانظر هذه المشاهد مصورة فى ملحق هذا الجزء) .

فهذه المشاهد المثيرة لا توضع إلا فى مكان يلهو الخليفة به مع قيانه قبل الاستحمام أو بعد الصيد ، وهـذا أقرب للعقل لو تفكر المرء فيه .

وعلى هذا يكون إدخال قصير عمرة وحمام الصرخ فى عداد القصور غير صحيح .

٥ — تاريخ بناء مسجد نور الدين فى الموصل :

فى المقال الجيد الذى كتبه معالى الدكتور داود الجلبى عن بدر الدين لؤلؤ فى مجلة سومر (ج ١ ، م ٢) — التى تهيئ مديرية الآثار العراقية عليها — إشارة إلى تاريخ بناء مسجد نور الدين محمود بن زنكى فى الموصل .

فقد ذكر الدكتور أن المسجد كملت عمارته سنة ٥٨٦ هـ .

قلت : إن نور الدين توفى سنة ٥٦٩ هـ بدمشق . والمصادر تشير إلى أن نور الدين أمر بعمارة مسجده فى حياته ، وما أدرى إن كان المسجد كملت عمارته بعد سبع عشرة سنة من وفاة نور الدين ؟ ولعل الصواب سنة ٥٦٨ أى بتقديم الثمانية على الستة ، ولعل الدكتور يصف لنا هذا المسجد ، ويحدثنا عنه .

دمشق — **صلاح الدين المنجد**

٧ – الزندقـــة
فى عهد المهدى العباسى
للأستاذ محمد خليفة التونسى

وقد أيد زرادشت عبادة النار وشجع على زيادة بناء بيوتها ، وذهب إلى أن يزدان فى حرب دائمة مع أهرمن لتنازع السيطرة على الكون ولاسيما الإنسان ، وأن من يعمل صالحاً يساعد يزدان فى النصر على أهرمن ، ومن يعمل سوءاً يساعد أهرمن على يزدان ؛ ولذا دعا إلى عمل الخير والأمر بالمعروف والنهى عن النكر . وكان مبالغاً فى التفاؤل فادعى أن النصر سيكون أخيراً ليزدان على أهرمن فينتصر الخير على الشر ويقضى عليه ، فتبطل المتاعب والفتن ، وعندئذ ينتهى العالم . وبين أن الإنسان بعد موته يحاسب على أعماله فمن رجحت حسناته عبر الصراط بسلام فلقى يزدان وأنزله منزلا طيباً ، وأن من رجحت سيئاته وقع من الصراط فى النار وصار مستعبداً لأهرمن ، وأن من استوت حسناته وسيئاته صار إلى الأعراف ، وهذه الآراء تمثل آراء كثير من الطوائف الاسلامية منذ ظهر الاسلام إلى اليوم ، وقد ذهب إلى أن الخير هو الأصل وأن الشر طارئ ، ويؤيد ذلك الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل فقد قال : « زعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن ، وكان أهلها فى خير محض ونعيم خالص ، فلما حدث أهرمن حدثت الشرور والآفات والفتن[1] » . . الخ

ويقول ماسبرو فى كتابه « تاريخ الشرق » ما خلاصته : « إن يزدان خلق كل شىء بكلمته ، واتخذ ستة أرواح لنفسه من طبقة سامية يعينونه على تدبير شؤون العالم وصونه ، وجعل لهم أرواحا دونهم يأتمرون بأمرهم وهم منتشرون فى العالم ، وحيال ذلك خلق أهرمن ستة أرواح شريرة تعادل أولئك الستة فى البطش وجعل لهم جنداً دونهم من الشياطين يطيعونهم فى أداء مايكلفهم به أهرمن من أعمال ، والقوتان دائماً فى نضال مستمر حتى ينتصر يزدان أخيراً على أهرمن وعندئذ تقوم القيامة » .

ومن تعاليمه وجوب إكثار النسل لإكثار جند يزدان فى نضاله أهرمن ووجوب إصلاح الأرض وزراعتها وتربية الحيوان والجد فى العمل ، وتحريم الصوم لأنه مضعف للقوة مثبط على العمل فى الحياة ، وتفضيل العمل على العبادة ، فمن يحرث الأرض ويبذر فيها الحب ويرويها أكرم ممن يتزلف بألف قربان أو يصلى عشرة آلاف صلاة أو يدعو عشرة آلاف دعاء .

ويزعم القلقشندى أن زرادشت : « ادعى النبوة وقال بوحدانية الله وأنه واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند ، وأنه خالق النور والظلمة ومبدعهما ، وأن الله تعالى هو الذى مزجهما لحكمة رآها فى التركيب ، وأنهما لو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم ، وأنه لا يزال الامتزاج حتى يغلب النور الظلمة ، ثم يخلص الخير فى عالمه وينحط الشر إلى عالمه وحينئذ تكون القيامة » . والقلقشندى يخلط صوابا بخطأ فيما زعم ، وأواخر زعمه تنقض أوائله ، ولا يصعب تمييز الخطأ من الصواب فى زعمه هذا إذا عورض بما قدمنا فى بيان مذهب زرادشت وسيرته ، فزرادشت — وإن كان يعتقد بأن أصل الكون واحد هو النور — اضطر إلى القول فى تفسير الظواهر الكونية والحياة الإنسانية بقوة أخرى ضد النور هى الظلمة ونسب إليها الشر الذى هو ضد الخير ، فهو موحد فى أصل الكون ، ولكنه ثنائى فى تفسير مايجرى فيه ، ويزدان عنده ليس فى تدبير الكون وخلقه واحداً لا شريك له ولا ضد ولا ند ، بل له شريك وضد وند هو أهرمن ، فهو يقول كالكيومرتية بأصلين. ومما أسنده القلقشندى إلى زرادشت يشبه أن يكون محاولة للتوفيق بين القول بوحدانية الله كما جاء بها الإسلام ، والقول بأصلين كما جاءت بها المذاهب الفارسية . وتشبه هذه المحاولة كثيراً رأى أبى العتاهية معاصر المهدى العباسى ومادحه وصاحب جاريته عتبة التى اتهم بالزندقة من أجلها حيناً ، ولأسباب غيرها أحياناً أخرى[1] فقد كان يدين بالتوحيد لله ويرى أن للكون طبيعتين[2] على ما سنفصله فى موضعه من هذا البحث إن شاء الله ، ففى مزاعم القلقشندى هنا ظلال لمذهب أبى العتاهية ، ومرجع الخطإ فى هذا

(١) قارن بين ما ذكره الشهرستانى هنا وما ذهب إليه الكاتب الفرنسى جان جاك روسو من أن الناس كانوا سعداء قبل نشوء الحضارة فلما نشأت ظهر الشقاء بين الناس ، وما رتبه على ذلك من وجوب الرجوع إلى الطبيعة فى كل شىء لاستعادة السعادة المفقودة .

(١) أغانى دار الكتب ج ٤ ص ٥١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥ وانظر ترجمة أبى العتاهية فى هذا المصدر ص ١ — ١١٢ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ٦ ص ٢٥٠ — ٢٦١ (مطبعة السعادة سنة ١٩٣١)

وغيره عند القلقشندى وأمثاله ممن لم يفهموا هذه الأقوال على أنها رموز — إنما هوالوقوف عند ظواهرها دون التأدى إلى البواطن المستسرة وراءها ، والجهل بالدوافع التى جعلت أصحابها ينزعون إليها من حيث يشعرون ولا يشعرون ، وقياسها على غيرها من المذاهب الدينية دون مراعاة الفوارق كما أشرنا إلى ذلك قبل .

أما اتهام القلقشندى وابن الأثير[1] زرادشت بادعاء النبوة فأرى أنه غير صحيح ، فابن خلدون يقول فيه إن المجوس يزعمون نبوته ولم يقل إنه ادعى النبوة ، وهناك أبوالريحان البيرونى ، وهو أولى أن تسمع شهادته فى هذا الموضوع ، لأنه أقدم من ابن الأثير والقلقشندى[2] وقد كان فارسياً عارفا بالثقافة الفارسية واللغة الفارسية ومؤلفاً بها واطلع بنفسه على بقايا الطوائف التى تدين بالزرادشتية وغيرها فى عهده واتصل بهم ، وهو أكثر استقصاء وإحاطة بهذا الموضوع من سائر المؤرخين الذين خاضوا فيه وليس لهم ثقافته ولا استقصاؤه ولا عبقريته ولا علمه الواسع بأخبار الأمم الشرقية فى عصره وقبله واطلاعـــه على حوادثها وأساطيرها وأخلاقها لسياحته فيها ومعرفته بلسانها واتصاله بها ووقوفه على كتبها وآثارها[3] . فلقد عقد هذا العالم الكبير فى كتابه « الآثار الباقية » فصلا عنوانه « القول على تواريخ المتنبئين وأممهم المخدوعين عليهم لعنة رب العالمين[4] » وذكر فيه كثيراً منهم سواء من كانوا قبل زرادشت مثل بوذاسف الذى ظهر بأرض الهند ومن كانوا بعده مثل مانى ومسيلمة ولم يعد فيهم زرادشت ، وكل ما ذكره فى هذا الفصل أن الملوك البيشداذية وبعض الملوك الكيانية ممن كان يستوطن بلخ كانوا يعظمون النيرين والكواكب وكليات العناصر ويقدسونها إلى وقت ظهور زرادشت[5] .

فزرادشت لم يدع النبوة كما نفهمها ، وما كان الفرس ليفهموها ولا ليتصوروها كما نفهمها ونتصورها نحن حين نسندها إلى الأنبياء الحقيقيين كموسى وسواه من أنبياء بنى إسرائيل وكمحمد صلاة

(١) ابن الأثير جـ ١ صـ ١٠ .

(٢) البيرونى (من ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ إلى رجب سنة ٤٤٨ هـ) وابن الأثير (من سنة ٥٥٥ هـ إلى سنة ٦٣٠ هـ) والقلقشندي عاش فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع .

(٣) انظر ما كتبه الأستاذ بروكلمان C Brockelmann وفيدمان E wiedemann عن البيرونى فى دائرة المعارف الاسلامية وتعليق الأستاذ محمد بك مسعود عليهما فى الترجمة العربيـــة ولا سيما ما نقله عن دائرة المعارف الفرنسيـة الكبرى .

(٤) و (٥) الآثار الباقية صـ ٢٠٤ .

الله وسلامه عليهم أجمعين ، أو حين نفهمها ونتصورها كما ادعاها المتنبئون كمسيلمة وسجاح والأسود العنسى ، فهذه نظرة فى أساسها يهودية ، لم تصل إلى فارس إلا فى القرن الثالث الميلادى على عهد مانى كما سنذكره مع سببه عند الكلام فيه ، وأمر آخر يؤيد ذلك هو أن هذا المذهب المنسوب إلى زرادشت ليس له من فضل فيه يتفرد به إلا التنقيح والبيان إذا بالغنا فى إسناد الفضل إليه فإنه قد قام بجولة فى أنحاء البلاد الفارسية للاستطلاع ومشاورة حكماء الفرس لإصلاح العقائد التى كانت قبله مملوءة بالخرافات وتطهيرها من الشوائب[1] ، ولا يتفق الادعاء بالنبوة التى تقتضى بنزول وحى من السماء حاسم القول فى كل شىء مع هذه الرحلة والمشاورات الواسعة ، ومما يؤيد ذلك أيضا أن كيستاسف الملك الذى اعتنق الزرادشتية ، منع من تعليمها العامة[2] حين منع تعليمهم كتاب زرادشت ، فالزرادشتية كما اصطفاها زرادشت كانت تحتوى على تعاليم وآراء لا قبل للعامة بفهمها واستساغتها فهى بذلك مذهب خاص وضع كثير منه للخاصة ، وذلك لا يتفق وآثار النبوة التى يقصد بهـــا الناس عامتهم وخاصتهم ، وبذلك يكون كيستاسف قد سبق كثيرا من الفلاسفة الذين أوجبوا قصر بعض المعارف على الخاصة دون العامة لأن العامة لا تطيقها ولا تفيد منها وقد تتأذى وتؤذى بهـــا : من هؤلاء الفلاسفة سقراط الذى أنكر الكتاب لأنه مفتوح لكل من يقع فى يده وآثر التعليم بالاختصاص ، ومنهم الفارابى الذى حرم تعليم العلم الرفيع على السفلة ، ومنهم الغزالى الذى نادى بأن من المعارف « المضنون به على غير أهله » وألف كتابه « إلجام العوام عن علم الكلام » لأن الناس كما قال فى كتابه هذا ، وكما يعرف العارفون بعقول الناس قد خلقوا أشتاتا متفاوتين فى المدارك ، فهم كالمعادن تختلف صورة ولونا وخاصة ونفاسة ، وكذلك القلوب معادن فبعضها لمعدن النبوة ، وبعضها للولاية ، وبعضها للشهوة البهيمية والأخلاق الشيطانية ، وكل ما قدمنا ينفى ادعاء زرادشت النبوة وإن كان لا ينفى ادعاء أتباعه النبوة له ، والمرء غير مسئول إلا عما يقول ويفعل لا على ما يتقوله عليه الناس ويسندون إليه من أعمال

(١) دائرة المعارف للبستانى : مادة زرادشت Zoroastre Zoroaster المجلد ٩ صـ ١٩٧ — ١٩٨ .

(٢) ابن خلدون فى العبر : جـ ٢ القسم الأول صـ ١٦١ وابن الأثير فى الكامل جـ ١ صـ ١٠١ .

لم يأنها سواء أكانوا أصدقاء أم أعداء ، ونحن نعلم أن المظمة فى كل زمان ومكان مبتلاة من هذه الناحية بأصدقائها ابتلاءها بأعدائها والعامية لا العظمة هى المسئولة عن كل ذلك .

وقد كان مما دعا إليه زرادشت إبطال عبادة الأصنام ووجوب التوجه للشمس أو النار عند الصلاة ، وعدم تدنيس العناصر الأربعة : النار والهواء والتراب والماء ، والشفقة على الحيوان ، والتزام الفضائل فى المعاملة ، والإمتناع ما أمكن عن أكل اللحم .

نجح زرادشت فى إقناع الملك كيستاسف بالدخول فى مذهبه وكان لذلك أثره من دخول الناس فيه وإيمان الشعب به ، ولا سيما أنه لم يكشف لهم منه إلا ما تطيق عقولهم ، وبذلك صارت الزرادشتية المذهب الرسمى فى البلاط الملكى والمذهب الذى ارتضته العامة طوعا وكرها . ومن أسباب نجاح الزرادشتية أنها ولا سيما ما كشف منها للعامة لم تبعد كثيرا عما كان عليه الفرس قبله ، فأعظم جهده ينحصر — كما قدمنا — فى التنقيح والتبيين لما كان قبله ، ومكانه فى ذلك لا يزيد فى رأينا كثيرا عن مكان الفيلسوف الهندى الكبير رابندرانات تاجور فى الفلسفة الهندية البرهمية ، حين نقحها وعبر عنها كما ارتضاها عقله . وما كتاب زرادشت الذى سنتحدث به بعد ، إلا كمثل كتاب تاجور «السدهانا» ودواوينه التى نظمها وعبر فيها عن آرائه وإحساساته تجاه الكون الذى يحبه ويعد نفسه جزءا منه ، فلا نبوة ولا تهجم على المشاكل الغيبية عند زرادشت ولا تاجور ، بل فلسفة وفن مردهما الشغف بالكون . والخطأ كل الخطأ أن ننتظر من البراهمة العوام أن يحدثونا حديثا صحيحا بفلسفة البراهمة كما فهمها تاجور ، وكذلك الخطأ فى انتظارنا أن نسمع حديث عوام الفرس بفلسفة الفرس القدماء كما ارتضاها زرادشت ومن شاورهم من حكماء فارس ، وكان كيستاسف سديد الرأى حين حرم تعليم العامة كتاب زرادشت . ومن أسباب نجاح المذهب الزرادشتى أنه كان ينزع إلى التفاؤل والإقبال على الحياة ويبشر العاملين فيها بالخير وهو فى هذا وغيره بل فى شخصيته إجمالا يشبه شخصية تاجور شبها قويا . ولا ريب عندنا فى أنه بهذا التفاؤل كان بشيرا معبرا تعبيرا صادقا عن الآمال القوية الطامحة التى كانت تتقل قلوب الفرس فى ذلك الحين ، وأنه كان ممهدا وصاحب فضل كبير على النهضة السياسية التى انتهت بقيام الملك الفارسى كورش الأكبر على تخليص الفرس من عبودية الميديين ، ثم مد حدود الدولة الفارسية الناشئة إلى خليج البسفور ، وهدم الدولة الليدية فى آسيا الصغرى .

كان زرادشت بنهضته العقلية ، بشيرا وممهدا لهذه النهضة السياسية ، فقد استطاع — وهو ينقح تعاليمهم القديمة — أن يحدد لهم طريق النجاح فى الحياة ويدفعهم إلى حبها والكفاح فيها ، ويركز آمالهم ومطالبهم منها ، وربما كان ذلك أيضا سببا من أسباب إقبال الملك كيستاسف المتطلع إلى المجد والسيطرة على الزرادشتية .

ولا ريب أن من أسباب نجاحه أنه عرف فى تجوله خلال البقاع الفارسية ومراجعة أعلام الفكر فيها نفسية قومه والحالة التى كانوا عليها ، والغاية التى يتوقون إليها ، كما كان لانتسابه إلى أصل ارستقراطى أثر كبير فى اتزان آرائه وذلك مما يسهل له حمل كيستاسف على مذهبه ، ولا ريب أن مما ساعده على ذلك فهم كيستاسف حالة شعبه وما يتوق إليه وما يطيق وما لا يطيق من مذهبه ، وكل أولئك مما ماز الزرادشتيين من غيرها من المذاهب التى بعدها على ما سنوضحه ، فأنالها من الذيوع والثبات وإقبال الخاصة والعامة عليها ما لم ينل غيرها .

(يتبع) محمد خليفة التونسى

«فلسطينيات» :

الأب جريجورى ...!

للأستاذ نجاتى صـدقى

(كلارا هاينز) فتاة يهودية ألمانية فى الثلاثين من عمرها ...

نشأت وترعرعت فى (ليبزيغ) من أعمال ألمانيا . ولما بلغت الثامنة عشرة ، أحبت (ريشارد كراوز) أحد زملائها فى مدرسة ليبزيغ الثانوية ، فعقدا النية على الزواج رغم مسيحيته ويهوديتها . غير أن هتلر استولى على الحكم — فجأة ، فانضم ريشارد إلى الشباب الهتلرى ، وفرت كلارا إلى فلسطين .

* * *

وبينما كانت كلارا ذات مساء فى زيارة صديقة لها فى القدس ، تعرفت إلى قسيس روسى فى الخامسة والخمسين من عمره يدعى (جريجورى فون فيخت) وينتمى إلى عائلة روسية ألمانية أرستوقراطية كان قبل سنة ١٩١٧ ضابطاً فى الجيش الروسى ، ثم فر إلى فرنسا ، واشتغل فى جريدة (الترانسيجان) ؛ وإذ حلت أزمة سنة ١٩٢٥ فى فرنسا ، رحل جريجورى إلى فلسطين ، واندمج فى الكنيسة الروسية الأرثوذكسية ، بمثابة قس ... وكان رجلا متعلماً ذكياً ، يجيد اللغات الروسية ، والألمانية ، والفرنسية ، والانجليزية .

ودعى الأب جريجورى مرة لكى يلقى بمحاضرة خاصة فى حلقة أصدقاء كلارا وصديقاتها فلبى الدعوة ، وكان موضوعه (دستويفسكى) واتجاهاته الدينية ، فأجاد فيها وأفاد ، وبرهن على أن دستويفسكى رجل صوفى يؤمن بأن الله هو المثل الأعلى للفن ، وأن روحه تكمن فى الحب ، والجمال ، والعظمة ، والعبقرية وفى كل شىء بديع ... وإن الناس — فى حبهم للفنون إنما يحبون روح الله المتجسمة فى كل جزء من أجزائها ...

طربت (كلارا) لهذه المحاضرة . وأعجبت بالمحاضر ، وأمطرته أسئلة كثيرة مستفسرة مستفهمة ... وعند الوداع سألته إذا كان يقبل إعطاءها دروساً باللغة الإنجليزية فى بيته ، فرحب الأب جريجورى بهذه الرغبة ، ووعدها ألا يتقاضى منها أجراً ، لأنه رجل زاهد فى الحياة ، لا تهمه المادة ما دامت الكنيسة تعنى بمسكنه وقوته ... !

وهكذا أخذت كلارا تتردد على بيت الأب جريجورى فى القدس فقرأت عليه الدرس الأول والثانى بالإنجليزية ، وكانت فى هذين الدرسين تكتفى بجلب كتابها ودفترها ، وأما الدرس الثالث فقد ذهبت الفتاة لتتلقاه على أستاذها ، وهى تحمل حقيبتين تتضمنان كل ما لديها من ألبسة ومتاع ... !

قال « زيد » احتجت فى أحد الأيام إلى ترجمة مادة إلى اللغة الإنجليزية فقيل لى : (عليك برجل روسى يدعى الأب جريجورى فهو مترجم من الطراز الأول ، فذهبت إليه وطرقت الباب ، فسمعت صوتاً من الداخل يقول (تفضل ... تفضل ...) ولما وطئت قدماى الغرفة وجدت فى ركنها الأيمن رجلا ذا لحية شقراء طويلة ، وقد استلقى على سريره . فسألنى أن أجلس وأفهمنى بأنه يشكو قرحة فى معدته ، وبعد ثوان دخلت علينا من غرفة داخلية فتاة فتانة ، آرية الهيئة ، خرنوبية الشعر ، عسلية العينين ، ممشوقة القد ، بارزة النهدين ، وكان وجهها إذ ذاك ممتقعاً وعيناها تميلان إلى النعاس ، وشعرها مشعثاً ، وقد علت شفتيها ابتسامة مغتصبة ، فمدت إلى أنامل طويلة رقيقة ، ورحبت بى ... فقلت للرجل : ألى الشرف بالتعرف إلى ابنتكم ؟ ... ففتح جريجورى من بين شاربيه ولحيته فماً وأصدر منه ضحكة مزعجة وقال : كلا إنها ليست ابنتى ... وأخذ يدها بين راحتيه وطبع عليها قبلة ... وإنما هى سكرتيرتى ... وزوجتى ... وهى يهودية ألمانية ...

لم يصدق الزائر ما سمع ، وراح يجيل النظر فى جريجورى تارة وفى الفتاة تارة أخرى ، فاحتشدت فى رأسه أسئلة عديدة حار فى تعليلها ... أقسيس ويهودية ؟ أشيخ وصبية ؟ ... أقبح وجمال ؟ ... أموت وحياة ... إلهى ، كيف جمعت هذين الضدين ؟ وكيف وفقت بين هذين العالمين ؟

وخرج « زيد » من لدن الأب جريجورى وخرجت كلارا فى أثره تشيعه ، ولما بلغنا الباب الخارجى قالت له : — لقد أصبحت الآن من معارفنا ... فلا تبخل علينا بزيارات أخرى ... ورمقته بنظرة عميقة ساحرة ...

وأقفلت الباب ...

* * *

فقضى « زيد » أياماً ولياليَ وهو يفكر فى أمر ذينك المخلوقين ، وكلما حاول تناسيهما عادا إلى مخيلته فتصور الأب جريجورى بلحيته الراسبوتينية ، وهو يضحك ، ويتألم من مرضه ، وارتسم أمامه هيكل تلك المرأة الحسناء الغريبة الأطوار ، فأحس بدافع الفضول أو حب المعرفة يدفعه إلى القيام بزيارة خاصة لها فلعله يظفر هذه المرة بما يحل له تلك الرموز والمعميات …

وإذ بلغ «زيد» باب بيت القس شم رائحة البخور تنبعث منه ، وسمع صوت تراتيل دينية تتصاعد من أرجائه ، فدفع الباب برفق ، وأطل برأسه إلى الداخل ، فشاهد الأب جريجورى يلفظ النفس الأخير ، ومن حوله رهط من الرهبان والراهبات الروس يصلون من أجل روحه وكلارا جاثية إلى جانب سريره تذرف الدمع السخين، فالتاع لهذا المشهد وارتد إلى الشارع مضطرباً مذهولا .

ومضت أيام علم الشاب العربى فى أثنائها أن الأب جريجورى مات ، وأن كلارا ظلت وحيدة حزينة فزارها مرة ليعزيها ، فاستقبلته بوجه شاحب وبعينين غائرتين ووجد عندها (قواصاً) كان من معارف زوجها ، وكان يعزيها بقوله : (موش لازم يبكى) موش لازم يزغل … مافيش جوزك ، فى … أنا !) … ثم خرج القواص ، وجاء رجل آخر من معارف المرحوم أيضاً فسلم عليها وعزاها . ثم قال لها : —

(أوفدنى أبونا نسطاس كرياكوس رئيس دير (… …) وسألنى أن أبلغك رسالة شفهية … يقول لك أبونا إنه تأثر جداً لفقدك زوجك . وأن المرحوم كان من أصدقائه الحميمين ، ولما علم أنك غدوت وحيدة أحب أن يمد لك يد المعونة فهو يعرض عليك الإقامة فى جناح من الدير ويتعهد لك بكل ما يلزمك من ملبس ومأكل . أفلا تلبين سؤاله ؟

فأجابته كلارا وقد أسندت رأسها بين يديها : قل لرئيسك إذا كانت كلارا قد تزوجت قسيساً وتوفاه الله فذلك لا يعنى أنها مستعدة لأن تتزوج رهبان ديره … !

وتوطدت عرى الصداقة بين « زيد » وكلارا وعلم منها الشىء الكثير عن علاقتها بذلك القس الروسى الراحل ، علم منها أنه كان يعلمها اللغة الإنجليزية ، فسرعان ما سلبها عقلها بأحاديثه الطلية وبفلسفته الصوفية ، وبآرائه الاعتزالية ، فسألته بأن تتلمذ على تعاليمه ، فسألها بأن تسكن وإياه ، فلم تمانع وانتقلت للحال إلى مسكنه .

وإذ علم رؤساء الكنيسة بفعلته هذه ثارت ثائرتهم وتساءلوا كيف يبيح قس لنفسه الزواج بفتاة يهودية ؟ فطردوه من الكنيسة وحرموه من لقب قس ومنعوا عنه كل مساعدة وألصقوا به شتى التهم …

أما أهل الفتاة فقد حنقوا جداً على فعلتها هذه وقالوا كيف تبيح فتاة يهودية لنفسها أن ترتمى فى أحضان قسيس روسى كان فيما مضى من الأيام ضابطاً فى الجيش القيصرى ، وساهم فى أعمال الاعتداء على اليهود ، واغتصب نساءهم وقتل رجالهم ؟ …

وبعد مضى ستة أشهر على حياتهما المشتركة أحس جريجورى بألم فى معدته وتبين له أنها قرحة ، فلزم الفراش وكانت كلارا تشتغل وتقدم له القوت ، ومرت بها أيام لم تعمل فى أثنائها ، فكانا يقتاتان بالشاى والخبز فقط ، ولما اشتد عليه المرض نقلوه إلى المستشفى وأجروا له عملية ، وتطوعت الفتاة بنقل دمها إلى جسمه فلم تنجح العملية ، ومات ذلك الشيخ الذى أحبته كلارا بكل جوانحها …

لم يترك جريجورى لزوجته أو لخليلته من حطام هذه الدنيا سوى الوصية التالية : « أنا جريجورى فون فيخت ، قس فى الكنيسة الروسية ، أوصى بأن ينتقل كل ما فى هذا البيت من أثاث — سريران ، وخزانة ، وطاوله ، وكرسيان ، وأدوات منزلية — إلى السيدة كلارا هايتز وذلك مقابل ما قدمته لى من خدمات أثناء مرضى ! »

وجرى مرة حديث بين « زيد » وكلارا حول الدوافع التى حدت بها إلى معاشرة ذلك القس فقالت وهى تذرف الدمع بغزارة من مآقيها ، إنى أحببته لأدبه وعلمه … إنى عشقته لخبرته وبعد نظره . لقد تهافت على عدد كبير من الشبان من أبناء جنسى ورفضتهم كلهم ، لأنى لم أبحث عن مال … أو جمال … أو قوة جسدية ، إنى بحثت عن رجل يشبع نهمى الروحى ، ويرضى مطامحى الأدبية والفنية ، فعثرت عليه فى نهاية الأمر فى شخص القس جريجورى .!…

الصهيوني الأول

[مهداة إلى الأقلام النبيلة المجندة لنصرة فلسطين]

للأستاذ محمد سعيد الأفغاني

— ٢ —

في الفاجعة الكبرى : فتنة الجمل :

سقط الخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان مضرجا بدمه ، ضحية المؤامرة الخطرة التي دبرها بإحكام عبدالله بن سبأ مالىء الأرض فتنا وشرورا وفسادا . فضج الناس من هول الفاجعة وفداحة الخطب وجأروا يطالبون بثأر عثمان . فانبلج ذهن ابن السوداء عن خطة مضاعفة ينجو بها هو ومن معه من القصاص ، ثم يتحفز هو لإحكام مؤامرة أكبر ، وسوق هذه الجماهير نحو فاجعة أكبر وكارثة لا تذكر إلى جانبها الكارثة بعثمان رضي الله عنه .

انضم هو ومن تابعه إلى علي بن أبي طالب ، حين انبرت السيدة عائشة وطلحة والزبير يؤلبون الجماهير للطلب بدم عثمان ، فكان لابد للإمام على من الخروج لرد السيدة ومن معها خشية أن ينبثق صدع جديد ، فلما وصل إلى الكوفة كان ابن السوداء وأعوانه أنشط جنده في الدعوة لأمره ، وبذلك كانوا في حرز حريز من الثائرين لعثمان الذين احتلوا البصرة يستعدون .

جرت بين علي وأصحاب الجمل مكاتبات ثم سفراء ووفود ، وتفاهم الفريقان ، وفرح الناس بانقشاع الغمة ، وتراضى المسلمين وجمع الكلمة على المشاورة في كل أمر ، وعلى أن يكون أول الأمور حلا أن يأخذ علي في قصاص قتلة عثمان ، ورتق هذا الفتق الذي أحدثه ابن سبأ وأعوانه في أرض الجزيرة .

أرسل علي إلى رؤساء أصحابه بما تم عليه الإجماع من اتفاق وكذلك فعل طلحة والزبير ، واتفقوا على الصلح ، وبات الناس بليلة لم يبيتوا بمثلها فرحاً وابتهاجاً بما أشرفوا عليه من العافية والسلامة . أما ابن السوداء وأصحابه فقد باتوا بشر ليلة باتوها قط ، وجعلوا يتشاورون ليلتهم في سر من الناس خشية أن يفطن أحد لما يبيتون من الشر .

المؤامرة :

أشرف الفريقان من أصحاب علي وأصحاب الجمل على الصلح والإجماع ، واطمأنوا إلى نوم هنيء لما وفقهم الله إليه ، وكان في هذا مايسر الناس جميعا ، إلا هذا الفريق الذين لايطيب لهم عيش إلا بتأريث الشر ، وهم هؤلاء السبئية المؤلبة على عثمان والوالغة في دمه ، عرفوا أن لا مقام لهم سواء انتصر علي أم خصومه . لأن عليا لن يسكت عن إقامة حد متى تم له الأمر وأمكنته الفرص ، وكذلك أصحاب الجمل إن ظفروا لم يتركوا أحداً ممن شرك في دم عثمان ؛ لقد كان هم الناس من الفريقين قتلة عثمان أينما كانوا .

جمع ابن السوداء هؤلاء النفر في ظلمة الليل البهيم ، وكان منهم علباء بن الهيثم وعدى بن حاتم وخالد بن ملجم وسالم بن ثعلبة العبسي وشريح بن أوفى والأشتر ... في عدة ممن وقعوا في شرك الطاغية عبد الله بن سبأ فلعب بعقولهم وسيرهم وأتباعهم إلى عثمان ، جمعهم فتداولوا بينهم هذا الكلام :

« ما الرأى ؟ وهذا والله علي — وهو أبصر الناس بكتاب

لقد كان المرحوم جريشا (تصغير لجريجوري ويستعمل غالباً في التحبب) أستاذي الروحي ، وزوجي النبيور ، ووالدي الحنون !.

لم يود جريشا مفارقة هذا العالم ... وكان وهو على فراش الموت يصرخ قائلا : — لا أريد الموت ... أريد الحياة ... أريد البقاء إلى جانبك ... لدينا رسالة روحية سنؤديها معا ... فلم يجبه الله إلى سؤاله وفاضت روحه بين ذراعي .

انظر إلى ملابسه ... فها هي معلقة حيث تركها .. هاك كتبه اللاهوتية ، وسريره وعصاه ، وسترة نومه ، ثم ها هي صورة (يسوع) لا تزال حيث أحب أن تكون ... كلا ؛ إن جريشا لم يمت . إنه حي في قلبي . وقد قطعت على نفسي عهداً بألا أعاشر رجلا سواه ! ...

فالداخل إلى بيت كلارا اليوم ، يرى في صدره تمثالا نصفيا للقسيس جريجوري ، وقد علقت أرملته فوقه قنديلا زيتياً لا تنطفىء شعلته ، وإذا ما جاء يوم الأحد من كل أسبوع ارتدت السواد ، وابتاعت باقة من الزهور واتجهت إلى مقبرة تقع على جبل صهيون في القدس لتبكي ذلك القس الغامض الراحل .

نجاتي صدقي

الله ممن يطلب قتلة عثمان ، وأقربهم إلى العمل بذلك — وهو يقول ما يقول[١] ولم ينفر إليه إلا قتلة عثمان والقليل من غيرهم ، فكيف به إذا شام (نظر) القوم وشاموه ، وإذا رأى قلتنا فى كثرتهم ؟ ؟ ... أنتم والله ترادون ، وما أنتم بأنجى من شىء » .

الأشتر : أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما ، وأما على فلم نعرف أمره حتى كان اليوم . ورأى الناس فينا واحد ، وإن يصطلحوا فعلى دمائنا ... فهلموا — يا قتلة عثمان — فلنتواثب على على فنلحقه بعثمان ، فتعود فتنة يرضى منا فيها بالسكون .

ابن السوداء : بئس الرأى رأيت : أنتم يا قتلة عثمان من أهل الكوفة بذى قار ألفان وخمسمائة ، وهذا ابن الحنظلية (القعقاع ابن عمرو) وأصحابه فى خمسة آلاف : بالأشواق إلى أن يجدوا إلى قتالكم سبيلا ؛ فارقأ على ظلعك[٢] .

علباء بن الهيثم : — انصرفوا بنا عنهم ودعوهم ؛ فإن قلوا كان أقوى لعدوهم عليهم ، وإن كثروا كان أحرى أن يصطلحوا عليكم . دعوهم وارجعوا فتعلقوا ببلد من البلدان حتى يأتيكم فيه من تتقون به ، وامتنعوا من الناس .

ابن السوداء : — بئس ما رأيت ، ودّ — والله — الناس أنكم على جديلة (ناحية) ولم تكونوا مع أقوام برآء ، ولو كان ذلك الذى تقول لتخطفكم كل شىء .

عدى بن حاتم : — والله ما رضيت ولا كرهت ، ولقد عجبت من تردد من تردد عن قتله فى خوض الحديث ؛ فأما إذا وقع ما وقع ونزل من الناس هذه المنزلة فإن لنا عتاداً من خيول وسلاح محموداً ؛ فإن أقدمتم أقدمنا وإن أمسكتم أحجمنا »

ابن السوداء : — أحسنت .

سالم بن ثعلبة : — من كان أراد فيما أتى الدنيا فإنى لم أرد ذلك ، والله لئن لقيتهم غداً لا أرجع إلى بيتى ، ولئن طال بقائى إذا أنا لاقيتهم لا يزيد على جزر جزور[٣] . وأحلف بالله : إنكم لتفرقون من السيوف فرق قوم لا تصير أموركم إلا إلى السيف .

ابن السوداء : — إن هذا قد قال قولا .

شريح بن أوفى : — أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا ، ولا تؤخروا أمراً ينبغى لكم تعجيله ، ولا تعجلوا أمراً ينبغى لكم تأخيره ؛ فإنا عند الناس بشر المنازل ، فلا أدرى ما الناس صانعون بنا غداً إذا ما هم التقوا .

ثم تكلم ابن السوداء بعد أن أدلى كل بدلوه فقال :

« يا قوم ، إن عزكم فى خلطة الناس ، فصانعوهم ، وإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر : فإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ، ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون . فأبصروا الرأى وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون[١] » .

وعلى ذلك انفض الاجتماع الأثيم ، وأحكمت الخطة .

قاتل الله ابن السوداء ، فوالله ما أراه إلا شيطاناً خلق من مارج من نار ، ما أبصره بطرق الفتنة وبث العقارب ، وما أدق توهينه تلك الطرق التى أشار بها أصحابه ، ما أفطنه إلى ضعفها وقلة غنائها ، ثم كيف آل به تقليب الرأى حتى اهتدى إلى التى ليس بعدها شر منها : قاصمة الظهر ومبيدة الأمم .

ومنذ الذى يقرأ هذه المؤامرة ، وكيف أدار أصحابها الآراء على وجوهها المختلفة ، ثم لا يرجع ذهنه بسرعة البرق إلى ما ذكره أصحاب السير عن مجلس كفار قريش فى دار الندوة : يجيلون الرأى فى محمد صلى الله عليه وسلم ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، وقد حضر اجتماعهم ذاك إبليس بهيئة شيخ نجدى ، فجعل كلما عرض أحدهم رأياً فى القضاء على دعوة محمد وهنه وأظهر فساده ، حتى أعيا القوم جميعاً بحجته ، فسألوه : ما عنده ؟ فقال : تختارون من كل قبيلة رجلا جلداً ، فيجتمعون ويضربون محمداً ضربة رجل واحد فيضيع دمه بين القبائل ، ولا طاقة لبنى هاشم بقبائل العرب كافة » .

أليست تلك المؤامرة نسخة (طبق الأصل كما يقولون) عن هذا المجلس ؟

---

(١) كان على بعد أن انفقت السكينة خطب فى أصحابه فقال : « ألا وإنى راحل غداً فارتحلوا ، ألا لا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشىء ، وليغن السفهاء عنى أنفسهم » الطبرى ٣–٥٠٧ وهم يعنون قوله هذا وقد نزل عليهم كالصاعقة إذ كانوا يرون أنفسهم أخلص جنده وأقواه

(٢) أى : إنك ضعيف فتكلف ما تطيق وأصلح أمرك . القاموس

(٣) يريد : وقتاً بمقدار ما تنحر الذبيحة ويسلخ جلدها .

(١) خلاصة حديث هذه المؤامرة الؤرخ الطبرى فى تاريخه ٣/٥٠٧–٥٠٨

أليس ابن السوداء هذا إبليس بعينه ؟ وأستغفر الله ، فأين يقع منه إبليس ؟ لهو والله أبلغ نكاية بهذه الأمة من إبليس ، وأبعد أثراً في الدس والكيد . وأخشى أن يكون الذي ظنوه إبليس ابناً من أبناء السوداوات أبطال الشر والمكر والفساد من اليهود : تنكر لهم شيخاً نجدياً إحكاماً لدسيسته .

* * *

لما كان الغلس انسل هؤلاء المؤتمرون — وما يشعر بهم جيرانهم — إلى الأمر الذي أجمعوا عليه انسلالا وعليهم ظلمة ، فخرج مضريهم إلى مضريهم ، وربعيهم إلى ربعيهم ويمانيهم إلى يمانيهم ، فوضعوا فيهم السلاح ، فثار أهل البصرة ، وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بغتوهم ، وحيرتهم الصدمة فقد كانوا باتوا على صلح تغشاهم الطمأنينة والسكينة .

فجيء الناس جميعاً ، وخرج طلحة والزبير فسألا : « ماهذا ؟ » فقالوا : « طرقنا أهل الكوفة ليلا » . فقالا :

« قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ، ويستحل الحرمة ، وأنه لن يطاوعنا » .

ثم خرجا في وجوه الناس من مضر ، فبعثا إلى الميمنة — وهم ربيعة — عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بعثاها ، وإلى الميسرة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، وثبتا في القلب .

استطاع أهل البصرة أن يصدوا أولئك المعتدين حتى ردوهم إلى عسكرهم ؛ فسمع علي الصوت — وكان السبئيون المتآمرون قد وضعوا طبقاً لخطتهم رجلا قريباً منه يخبره بما يريدون — فلما قال : « ما هذا ؟ » قال ذاك الرجل :

« ما فجئنا إلا وقوم منهم قد بيتونا ، فرددناهم من حيث جاءوا فوجدنا القوم على رجل ، فركبونا وثار الناس » .

فقال علي لصاحب ميمنته : « ائت الميمنة » وقال لصاحب ميسرته : « ائت الميسرة » ثم قال : « قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ، ويستحلا الحرمة ، وأنهما لن يطاوعانا » .

والسبئية مجتهدون في إنشاب القتال لا يفترون ، والتحم الناس بعضهم ببعض ، ودارت المعركة فاصطلى بنارها الناس جوعاً ، وكاد هؤلاء الناس الذين باتوا مصطلحين على خير حال ، كادوا أن يتفانوا ، وانحسرت المعركة عن خمسة عشر ألفاً من القتلى وما لا يحصى من الجرحى ، وكان فيمن قتل رؤوس المهاجرين والأنصار وزعماء الناس وعدد جم من القراء والعلماء والمجاهدين الأولين ، وسجل التاريخ أفجع نكبة حلت بالمسلمين منذ كان للناس تاريخ .

* * *

وبعد ، فهل ألب الأمصار على عثمان إلا ابن السوداء ؟

وهل غرهم أحد بمثل ما زور لهم من كلام ترويجاً لدعوته ؟

وهل دم عثمان إلا نجاح خطة ابن السوداء هذا ؟

وهل استطاعت الروم وفارس أن تنال من هؤلاء الفاتحين بمثل ما نال منهم ابن السوداء ؟

وهل هذه العشرات الألوف من دماء المهاجرين والأنصار من صحابة محمد صلى الله عليه وسلم وتابعيهم إلا ثمرة خبه وكيده ومكره بهذا الدين وأهله ؟

وما زال المسلمون من يومهم ذاك إلى الآن في شرور متتالية زجها إليهم أبناء السوداوات[1] في مختلف الأعصار والأمصار : دساً في دينهم وتفرقة لكلمتهم ، واستهانة بتاريخهم ، واستخفافاً بتقاليدهم ومقوماتهم ، ووضعاً من شأن لغتهم ، وإفساداً لأخلاقهم، وتهويناً من سلامة نظمهم ، وإشادة بكل مذهب أجنبي يفكك عراهم ويأتي بنيانهم من القواعد . والغريب أننا قوم (طيبون جدا) لا نرى غضاضة في توسيد أمورنا الصغيرة أو الكبيرة إلى الذين كانوا مطايا الاستعمار وجواسيس الأجانب ، وأجراء لكل دعوة هدامة ودولة طامعة . نفعل ذلك عن غفلة تارة وعن غرور تارة ، وقد كتب الله على هذه الأمة ألا تفطن إلى أبناء السوداوات هؤلاء ، إلا بعد أن يبلغوا منها ما أرادوا ليقضي الله أمراً كان مفعولا[2] .

ترى هل بدأنا نتعظ ؟ ؟

سعيد الأفغاني

(١) يصح أن نطلق (أبناء السوداوات) على الذين يقومون في المجتمع الاسلامي ، في ميادينه الفكرية والعلمية والتربوية والسياسية و . . . بمثل مهمة (الطابور الخامس) لأيامنا هذه ، تسمية لهم باسم أعظمهم شراً ودساً وكيداً : عبد الله بن سبأ ، ابن السوداء .

(٢) من كتابنا المعد للطبع (عائشة والسياسة) .

من أغانى الحرية :

صدىء القيد ! !

[إلى قطرات من دم رآها الشاعر فى ميدان قصر النيل يوم هب شباب الوادى هاتفين بالجلاء !]

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

صدىء القيد ! ألا نا … رٌ من الوادى تذيبه ..
بعد ما طال على النيـ … ـل أساه ولهيبه ؟!

* * *

صدىء القيد ، وهذى … صرخة الأرواح منه
زفرات ، ودماء … تنقل الأحزان عنه !

* * *

وهتاف زمجرت فيـ … ـه أناشيد الضحايا
ظامىء للموت نشوا … ن إلى خمر المنايا !

* * *

صدىء القيد ، وناح الـ … ـغاشم الطاغى عليه
وتعايا كل ظلم … وظلام فى يديه !

* * *

دقت الأجراس .. فلنضـ … ـرب على تلك السلاسل
بيد ملت هوان الـ … ـطير فى تلك الحبائل !

* * *

بيد للنار والنو … ر بها رىٌّ وزاد
من دم الأحرار يغذو … ها ، ويسقيها الجهاد

* * *

غضب النيل ، وإن يغـ … ـضب ، فقل : ذاب الحديد !
وانبرى كالعاصف المجـ … ـنون شيخ ووليد

* * *

دقت الأجراس ، فلنسـ … ـمع لها فى كل صدر
ولنسر صفاً لنحيا … أو نحطم قيد « مصر » !

عـــزاء . . . !

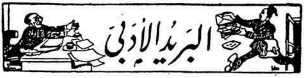
للأستاذ أحمد مخيمر

العزاء العزاء يا مبدع الشعـ … ـر عزاء لكل قلب عميد
أنا لولا مخافتى موقف الحز … ن لما كنتُ باكياً من بعيد
وبكائى كتمته فى ضلوعى … ثم رقرقتُ دمعه فى نشيدى
حجزته عن المسيل قوافيـ … ـه ، فكانت لفيضه كالسدود
وأشد البكاء فى النفس لذعاً … ما توارى عن أعين وخدود

سهد القلب يا غزالىّ أن بتّ (م) … تعانى مرارة التسهيد
وإن ارتبتَ فى خطوب الليالى … عند ما حانَ باليقين السديد
وجعلتَ الحياة يأس سجين … ورجاء الحياة شجو طريد
وعبرتَ الزمان للغيب ملهو … داً ، وما كنتَ قبل بالملهود
ساخراً من حقيقة العيش والمو … ت ، ومن كل كائن فى الوجود
كلما جاءك الواسون دافه … تَ ابتسامات موجع مجهود
باهتات كأنما هن أكفا … ن رجاء ميّت ، وبشر فقيد
بسمات من غور جمتك تنمو … كورود تموت فوق اللحود
كشفت ما كتمتَ من لهب شب (م) … لظاه بأضلع وكبود
وأبانت عما دفنتَ من البشـ … ـر ، وعما كفنتَ من تغريد
ولقد يبسم الحزن إذا لم … يلق فى الدمع غاية المستزيد ..

يا صديق العزاء لا تبعث السخـ … ـر عنيداً من الزمان العنيد
إنما الوالد الكريم سيبقى … خالد الذكر ، باقى التمجيد
زودته الحياة بالحكمة الأو … لى ، وبالسر أيما تزويد
وأتاحت لقلبه نبعها الأسـ … ـمى ، ليحظى هنيهة بالورود
خبر العيش فطرة ، ورأى الدنـ … ـيا بعينى مجرب محمود
وتعالى عن الدنايا ، وصفّى … قلبه من عداوة وحقود
فهو ناهيك من صفاء وحلم … وهو ناهيك من عفاف وجود
تشتكى الأرض منه من طول ما عفّـ … ـر فى الترب وجهه بالسجود
وتظل الطيور تسأل عن مُلـ … ـقٍ بمنقارهن حب الحصيد
فطرة ذلك الحنان ، وهذا الـ … ـعطف فى ذلك الأبىّ المجيد

العزاء العزاء يا مبدع الشعـ … ـر عزاء لكل قلب عميد
وإذا كانت الحياة إلى خلـ … ـد ، فإن البكاء غير حميد
شهد الله أن والدك البر (م) … رجاء الحياة للتخليد
غاب فى رحلة إلى العالم الأسـ … ـمى بوادى فردوسه المفقود



إلى الأستاذ محمود محمد شاكر :

سلام عليك . وبعد فقد قرأت ردك على فاستغربته ، فإنك ذكرت الآية الشريفة « والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » واتخذت منها شاهداً على صحة عبارتك وعلى غلط رأيي فيها . والحق أن هذه الآية دليل على بطلان قولك ودليل على صحة قولي . ففيها عبارة (والسلام على) معرفة بأل لأنها تشير إلى (سلام عليه) في آية قبلها هي « وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » . قال الزمخشري في الكشاف عن هذه العبارة المتصلة بأل : « قيل أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله كقولك : جاءنا رجل فكان من فعل الرجل كذا . والمعنى ذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إلى » . وإن لم ترض بهذا أيها الأستاذ فانظر إلى تعقيب الزمخشري عليه ، قال : « والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضاً باللعنة على متهمي مريم وأعدائها من اليهود ، وتحقيقه أن اللام للجنس فإذا قال : وجنس السلام على خاصة ، فقد عرض بأن ضده عليكم . ونظيره قوله تعالى : والسلام على من اتبع الهدى ، يعني أن العذاب على من كذب وتولى »

وبديهي أيها الأستاذ أنك لا تعني بقولك (السلام عليكم) في بدء كتابك الأول تعريضاً بأحد إذ لا حاجة للتعريض .

ولو أعدت النظر في تعقيب الزمخشري لوجدت رداً على شاهدك الآخر في الآية الشريفة : « فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى »

وبعد أن أظهرت لك الحقيقة بآيتين تناولتهما أنت من القرآن الكريم للرد علي ، أقول :

إنك دللت على صحة عبارتك بالاستشهاد بصحيح البخاري ومسند ابن حنبل ، وفاتك أن الحديث لا يستشهد به أهل اللغة والنحو لأن كثيراً منه مروى بالمعنى وفي خزانة الأدب للبغدادي أقوال للعلماء كثيرة تؤيد ذلك . قال السيوطي : « فإن غالب الأحاديث مروى بالمعنى ، وقد تداولتها الأعاجم والمولدون قبل تدوينها فرووها بما أدت إليه عبارتهم فزادوا ونقصوا وقدموا وأخروا وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ — ج ١ ص ٦ »

وقال سفيان الثوري وهو أحد رواة الحديث المعول عليهم « إن قلت لكم إني أحدثكم كما سمعت فلا تصدقوني إنما هو المعنى ج ١ ص ٦ » . وجاء في الكتاب نفسه كلام لأبي حيان يفيد أن أئمة البصريين والكوفيين كالخليل وسيبويه والكسائي والفراء وغيرهم لم يستشهدوا بالحديث ، وعلل ذلك بما تقدم من العلل .

وأظنك الآن أيها الأستاذ توافقني على إغلاق باب الاستشهاد بالحديث .

أما أهل القبلة فتشهدهم بعد الصلاة مختلف فيه فمنهم من يقول (سلام عليك ...) ومنهم من يقول (السلام عليك ...) وحبذا لو أطلعتني على نص يوثق به يشير إلى أنهم منذ زمن الرسول (ص) يقولون في التشهد « السلام عليك أيها النبي . »

وأما قول الأخفش الذي اتخذت منه حجة لقولك فلا يعتد به لأنك لم تذكر المصدر الذي نقلت عنه .

وحسبك أيها الأستاذ أن تجد القاعدة مختصرة في هذا البيت القديم :

سلام الله يا مطر عليها وليس عليك يا مطر السلام

والحق أنه لم يكن ينبغي لي أن آتيك بشواهد من آي الذكر الحكيم أو الشعر لأني لست بصدد ذلك .

والمسألة هي أن العرف الجاري بين الكتاب القدامى أن يبدأوا كتبهم بـ (سلام عليك أو عليكم) ويختموها بـ (السلام عليك أو عليكم) . وحسبي أن أثبت كلام ابن قتيبة الذي تحاملت عليه في ردك على ، قال : « وتكتب في صدر الكتاب : سلام عليك وفي آخره : السلام عليك ، لأن الشيء إذا بدئ بذكره كان نكرة فإذا أعدته صار معرفة . وكذا كل شيء نكرة حتى يعرف بما عرف ، تقول : مر بنا رجل . ثم تقول : رأيت الرجل قد رجع . وتقول : رأيته قد رجع . فكذلك لما صرت إلى آخر الكتاب وقد جرى في أوله ذكر السلام عرفته أنه ذلك السلام

المتقدم – أدب الكاتب ص ٢٥٤ » .

وحسبى أن أعزز قول ابن قتيبة بالأدلة ، فتفضل بالاطلاع على قسم من الكتب للعصر الإسلامى .

كتب الرسول (ص) إلى المقوقس ما يأتى :

« من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام .. الخ — فتوح مصر لابن عبد الحكم ص٤٢ ،والطبرى جـ ٣ ص ٢٨٧ »

وكتب الرسول (ص) إلى كسرى فارس :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله . الخ صبح الأعشى ص ٢٧٦ » وكتب أبو بكر (ر) للمرتدين :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بلغه كتابى هذا عامة أو خاصة أقام على إسلامه أو رجع عنه . سلام على من اتبع الهدى.. الخ ..الطبرى جـ ٣ ص ٢٧٦ » .

ومعلوم أن هذه الكتب مدونة ويستشهد بها اللغويون والنحاة . . .

واعلم ياسيدى أنى — كما تقول — « قنعت لك ولنفسى وللناس بالنقل مجرداً ... » والسلام عليك .

بغداد **صبحى البصام**

يا ابن أمى :

قرأت فى الرسالة المباركة فى العدد الأخير : قصيدة للمرحوم أبى القاسم الشابى تحت عنوان (يا ابن أمى) فدهشت لتلك القصيدة العصماء يجىء فيها هذا التعبير الذى تأباه قواعد اللغة .

ذلك أن القاعدة التى ذكرتها كتب اللغة لاستعمال هذه العبارة هى : إذا أضيف المنادى إلى مضاف إلى ياء المتكلم وجب إثبات الياء إلا فى ابن أم وابن عم فتحذف الياء منهما وجوبا لكثرة الاستعمال . وتكسر الميم أو تفتح فتقول يا ابن أم ويا ابن عم بفتح الميم وكسرها .

قال الله تعالى (قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى)

وقد قرر ابن مالك هذه القاعدة بقوله :

وفتح أو كسر وحذف اليا استمر فى يا ابن أم يا ابن عم لا مفر

محمد عبد المقصود هيكل

إلى الأستاذ محمود الخفيف :

لاحظت أنكم جريتم فى مقاليكم بالعددين الأخيرين من الرسالة على كتابة كلمتى « بيوريتان » و « البيوريتانية » كما هما . وأرى أنه كان يحسن أن تستخدموا بدلا منهما تعبير « الطهريين » لأن هذه ترجمة للكلمة الإنجليزية تؤدى بالضبط المعنى المقصود ، فضلا عن أنها سهلة فصيحة لا تعقيد فيها .

فلعلكم ترون رأيى والسلام .

وديع فلسطين

نسبة بيت :

نسب الأستاذ العقاد فى مقاله عن «حمام الحرم» هذا البيت:

يسقط الطير حيث يلتقط الحـ (م) ب وتغشى منازل الكرماء

إلى الطائى وهو بالطبع يعنى أبا تمام ، والمعروف أن البيت لبشار بن برد من قصيدة يمدح بها عقبة بن سلم ، ويقول فيها :

إنما لذة الجواد ابن سلـ م فى عطاء ، ومركب للقاء

وأكبر الظن أن هذا الخطأ فى النسبة وقع من أستاذنا الكبير سهواً كما هو ظاهر .

محمد أحمد عبد

في عالم الكتب :

حــــــواء الخالدة

[للأستاذ محمود تيمور بك]

بقلم الأستاذ وديع فلسطين

أفردت مجلة « الكتاب » في عدد يناير الماضي فصلا مسهبا عن التآليف التي ظهرت في عام ١٩٤٥ سردت فيه هذه الكتب بعدما بوبتها ونسقتها وفقاً لموضوعاتها . وقد استوقف نظرى آنذاك أن المسرحية لم تظفر من هذا الحصاد الوافر بأكثر من أربعة كتب هي : مسرحيتان ترجمها الأستاذ محمد عوض ابرهيم بك عن شكسبير وهما : « الليلة الثانية عشرة » و « أنطوني وكليوباترة » ومسرحية شعرية للأستاذ عامر محمد بحيرى عن « خالد بن الوليد » ومسرحية ترجمها عن الكاتب السويدى أوجست ستردبرج وهي « الأب » . ودفعني هذا إلى السؤال عن سبب تخلف الإنتاج المسرحي في مصر برغم أن المسرح أصبح من دعائم الثقافة ووسائل التهذيب ، فضلا عن التسلية . فجاء الجواب من صديق من أصحاب دور النشر بأن المسرحيات لا تصادف إقبالا من القراء وأنهم يصدفون عنها ويولون عنايتهم شطر الأقاصيص .

وإنه لأمر يدعو إلى العجب حقاً ، لأن المسرحية في الأدب الغربي لها مقام ممتاز ، بل إنها كثيراً ما تتقدم على القصة . وما ذلك إلا لأن المسرحيات عامة — ولا سيما الأدبية منها — تعتمد إلى حد كبير على جودة الحوار وقوته ، بينما الأقاصيص لا تعلق مثل هذا الشأن على الحوار لأن الوصف يغلب في معظم الأحيان على عنصر الحوار فيها .

ومما يدعو إلى الدهشة كذلك أن غالبية الكتاب العظام في العالم كتبوا المسرحية أمثال شكسبير (الذى اقتصر على كتابة هذا اللون من الفن) وإبسن Ibsen وتشيكوف وجوركي وشنتزلر وجورج برنرد شو ، أما الأدب العربي فهو معرض عن هذا الفن لأسباب قد يكون منها المحافظة على القديم . والمعروف أن العرب الأقدمين لم يكتبوا المسرحية ، وأن المرحوم أحمد شوقى بك كان من رواد هذا الضرب من الأدب بما أنتجه من مسرحياته الشعرية : « مصرع كليوباترا » و « مجنون ليلى » و « قمبيز » ... الخ

لهذه الأسباب مجتمعة ، سرنا أن أقدم الأستاذ محمود تيمور بك على كتابة المسرحية الطويلة – إذا جاز أن يكون في المسرحيات طويل وقصير كالقصص – فهو ولا شك يمهد السبيل لازدهار هذا الفن الذى لم يرتد مجاهله من كتاب الضاد سوى القليلين . وهؤلاء لم يكتبوا للأدب بقدر ما كتبوا للتسلية ، مما أفضى إلى هزال حركة التمثيل المسرحي ، لا في مصر وحدها ، بل في الشرق قاطبة .

ومسرحية « حواء الخالدة » التي نحن الآن بصددها ، قطعة من حياة العرب ، بطلاها عنترة العبسى وعبلة بنت مالك .

أحب عنترة عبلة فتدللت وتمنعت بعدما حملته الشاق والصعاب وسخرته في معابثاتها ومنازلاتها ليقنص لها أسداً ويجيء إليها بجلده ، ولما انصرف عنها أحبته وأخذت تتسمع أنباءه وانطوت على نفسها يوم أنبأها رسول كاذب أن عنترة لقى حتفه . ولكن عنترة لم يمت وعاد إلى بلده بعد غربته ، ثريا تعلم كيف يجرد الجيوش ويستل الحسام ، وينازل الأعداء ، ويحترب الحروب . عاد وقد غادرته ليونته وطراوته وتدلهه في الحب ، وأصبح رجلا شديد المراس معتزاً بنفسه ، يأبى أن يسأل أحداً أمراً ولو كان هذا الأمر حبيباً إلى قلبه .

وكأنما أرادت عبلة أن تسخر منه ، فرضيت بالزواج من أمير ولكن عنترة بارز ذاك الأمير وبذه وسبى عبلة وشد بها الرحال .

هذا محصل « حواء الخالدة » ، صور تيمور فيها تثنى المرأة ودلالها ، إعراضها وإقبالها ، غدرها وغيرتها ، تشفيها وتخاتلها ، حبها وبغضها ، طمعها وطموحها ، حشمتها وتبذلها . وجعل تيمور بك يوجه عنايته القصوى إلى لغة الحوار حتى إن المرء ليحتاج أحياناً إلى الرجوع إلى المعجم ليقف على معانى بعض الكلمات من أمثال : « الطباهج الرشراش » و « اللوزينج » و « النياق العصفورية » وسواها .

ولعل المؤلف اضطر إلى الالتجاء إلى هذه الكلمات وأترابها لأنه تخير موضوعا عربيا تدور حوادثه في بيداء العرب ، وهم حريصون على الفصاحة والعناية باللغة ، لأنها تجارتهم الوحيدة التي يتعاملون بها في الأسواق .

وحسبنا من المؤلف أنه ولج هذا الباب المسرحي ، وسلك هذا الطريق غير المطروق ، وأنه حاول فيه محاولة موفقة سبقتها منه محاولات مماثلة . ولسنا نزعم أن تيموراً بلغ في « حواء الخالدة » حد الكمال ، وإنما يمكن القول إنه يسير في هذا الإتجاه .



قصة ألبانية :

المهـــــد الذهبى

[مهداة إلى الأستاذ الكبير كامل كيلانى]

نقلها الألبانية :

وهبى اسماعيل حقى وابراهيم خير الله

— ٢ —

... يلعب الحظ أدواراً عجيبة فى حياة الإنسان ؛ فبينا هو يستيقظ من نومه مبكراً ليباشر كعادته عمله فى غير رغبة ولا اشتياق ، وهو لا يفكر إلا أن يومه سيمضى كأمسه فى عمل آلى لا يشعر معه بلذة روحية ولا بقيمة ذاتية ، وإذا بيد القدر تمتد إلى مجرى حياته ، فتحولها إلى ناحية مضادة كلها نعيم وكلها سرور ... إن نقطة التحول فى حياتى بدأت منذ زارنى القروى اليوم ، فكأنى به قد نزل من السماء ليهبى لى حياة أهنأ وأسعد ، حياة تلمع بأشعة الذهب الذى يمكن تبديله بأرقام ليست لها نهاية من النقود ...

حقاً ، إن بيرام نقطة الفصل فى حياتى بين منطقتين : منطقة الماضى الصامت العابس ، ومنطقة المستقبل الزاهر الباسم ، وعلى ذلك فإننى سأمتع النفس بكل أنواع المتع ما دمت أمتلك نقوداً بهذه الكثرة ... سأجوب كل البقاع ، وأشترى يختاً كبيراً أستخدمه فى رحلاتى ... إن والدى سيدهش عند ما يطلع على الموضوع . ترى هل فى الكهف حجر لم يرها بيرام ؟ وكم يكون عدد الكراسى ؟ وهل كلها ذهب ؟ إن العالم كله ستعتريه موجة من الاستغراب وسيقول : من أين لهذا الشيطان بكل هذا المال ؟ لعل بيرام لا يتحدث إلى أحد فى هذا الشأن . كان يجب أن أكم فاه بمبلغ كبير ، عشرة جنيهات على الأقل ، ليكون ذلك تشجيعاً له على السكوت ، وإغراء لوالدته على تركه حراً ... ترى من هذا الذى هو معه على موعد ؟ كم سينال الاستغراب من صديقى الوفى الأديب « محمود » ؟ سأهدى إليه مكتبة قيمة تقديراً لإخلاصه . سأجهز له مكتباً فخماً .

لا أدرى إن كان من المستحسن أن أقص عليه القصة ، أم أترك الظروف تتولى عنى ذلك ؟ وإن كنت على يقين أنه يستطيع أن يرشدنى إلى ما يحسن عمله ، كما يستطيع أن يعرف عهود تلك الآثار وقيمتها التاريخية ؛ فهو أكثر منى ثقافة ، وأطول تجربة ، وأعظم خبرة ، وهو فوق ذلك مدرس نابه ، وأديب ذائع الصيت ؛ ولكن ... كم يكفيه من النقود للقيام بهذه المهمة ؟ إنه يكاد يجن من فرط السرور عند ما يقف على قيمة الكنوز المادية والتاريخية ! على كل حال سأذهب إليه الساعة لأسرد له حكايتى ، أنا فى مسيس الحاجة إلى مخلص يأخذ بيدى إلى الطريق السوى ، فهذا عمل شاق ومن غير المعقول أن أقوم به وحدى !

هذه هى بعض الخواطر التى كانت تمر بمخيلة فريد وهو يقطع الحجرة بعد أن غادره القروى على أن يعود إليه فى المساء ، ولم يقطع عليه سلسلة هذه الأفكار إلا دخول الكاتب يسأله عن رسائل اليوم ، وليستأذنه فى الانصراف !

حرك فريد يديه حركة عصبية ، ولعن فى نفسه الراسلات والمكاتبات ، ثم أذن للكاتب أن ينصرف . ودعا الخادم وأمره أن يخبر الطاهى أن بعض الأصدقاء سيتناولون العشاء معه هنا فى الساعة الخامسة ، وأنه يود أن يكون الطعام فخماً . وتناول عصاه وخرج ميمما صوب « الليسيه » ليقابل صديقه « محموداً » ، فقد وطد العزم على أن يستعين بنصائحه ويستفيد من إرشاداته .

ولقد كانت السماء ملبدة بالغيوم ، والمطر لا يكف عن الانهمار ، والطريق بما تجمع فيه من ماء ووحل يتعب المارة ويلوث ملابسهم ؛ ولكن فريداً كان عن كل ذلك فى شغل ، فهو لا يبالى ، بل لا يشعر : أفى جفاف يمشى أم فى وحل . فقد طرأت عليه فكرة سيطرت على كل حواسه وصرفته عن كل ما يحيط به ، هذه الفكرة كانت فى مبدئها فرضاً ، ثم لم تلبث أن صارت فى قوة الحقيقة الواقعة عنده ، وهى لا يبعد أن تكون الأزيار مملوءة بنقود ذهبية قديمة ، ثم غطيت بهذا الغبار حتى لا تمتد إليها يد عابثة ... أربعة عشر زيراً ... يا لها من ثروة طائلة ... سأهرّب الأشياء

ذات القيمة فى أسرع وقت إلى الخارج ، وسأضع النقود فى بنوك سويسرا وانجلترا ، لأنها بنوك مضمونة ... وإلى هنا كان قد وصل إلى المدرسة وعلم أنه قد بقى عشر دقائق على خروج التلاميذ ، فرأى أن ينتظر فى الحديقة بعيداً عن الناس ، وليخلو إلى نفسه ويواصل حديثها . وما إن أخذ موضعه منها حتى تساءل: ترى ما هى اللغة التى نقشت على اللوحات ؟ أهى اللاتينية أم اليونانية القديمة ؟ كم من المكتشفات ستحتل الميدان فى الأيام القليلة المقبلة ؟ سأترك فخر الاكتشاف لزميلى وصديقى « محمود » إنى واثق أنه سيعجب كثيراً حينما أشرح له مقابلتى لبيرام ...

وفى هذه اللحظة دوى فى الفضاء صوت المؤذن منبعثاً من مئذنة مسجد « فوش كلس » يملأ الأرجاء : « الله أكبر ... الله أكبر ! » دعوة يلبيها المؤمنون الصادقون الذين امتلأت قلوبهم من خشية الله ، وترطبت ألسنتهم بذكر الله ... فيسرعون لصلاة الظهر شكراً لله على نعمائه ، وابتهالا إليه أن يوفقهم لرضائه ...

فى نفس الوقت دقت أجراس الكنائس القريبة تستحث أتباع المسيح عليه السلام أن يبادروا إليها للتبرك ! وفى هذه اللحظة أيضاً بدأ الطلبة يخرجون من المدرسة زرافات ووحداناً مسرعين إلى بيوتهم لتناول الغداء ، وكلهم يتأبط كتبه وأدواته ؛ فرأى فريد صديقه محموداً خارجاً مع زميل له ، فناداه ، فاستأذن صديقه ولحق بفريد... وبعد أن تصافحا قال له: لماذا أنت هنا يافريد ولست فى المتجر؟

— جئت آخذك لنتناول الغداء معاً ، ولأقفك على موضوع هام

— ماذا ؟ هل تمت خطوبتك ؟

— لا ! ولكن لدى أخبار فى نهاية الغرابة . فتعال معى إلى المنزل

— لا أستطيع ؛ فإنى سأعود بعد الظهر لإتمام دروسى .

— إنك عندما تعرف الخبر ستنسى الدروس ولن تفكر فيها ، بل ستلمها ولا تذهب إليها .

— ما دمت تقول ذلك فسأجىء معك وأفوض أمرى إلى الله . ثم أخذا طريقهما إلى منزل فريد الذى بدأ يقول لصديقه : لا شك يا محمود أننا سندهش « أشقودراه » بل العالم بأسره .

— لست أفهم هذه الألغاز يا عزيزى فأرجو أن تفصح .

— لقد عثرت على كنز ! فنظر إليه محمود فى استغراب وقال : بربك قل الصدق ما ذا بك اليوم ؟ فقد تغير فيك كل شىء .

أؤكد لك أنى وجدت كنزا .

— بالله لا تهزأ بى ، أنت الذى وجدته ؟

— لا ! ولكن قرويا جاءنى فى صباح اليوم وأفضى إلى أنه عثر عليه مصادفة ، وشرح له فريد ما كان من بيرام فتعجب محمود وقال : وهل وقع كلام القروى منك موقع الصدق ؟

— ولم لا ؟ ومن أين لقروى مثله خيال يحسن سبك مثل هذا الموضوع بمثل هذه المهارة ؟ إن من يفعل ذلك لا بد وأن يكون قد قرأ على أقل تقدير عجائب الكشف عن آثار « توت عنخ آمون » ذلكم الملك المصرى القديم . ولكن أنى لبيرام وهو الأمى الذى لا يقرأ أن يطلع على ذلك ويخترع مثله ؟ وإنك ستسمع منه بأذنيك وستحكم كما حكمت أنا — استنادا على طيبته — بصدق قوله .

حرك محمود رأسه دهشة واستغرابا وكانا قد وصلا إلى البيت واستدارا حول المائدة ، وأخذ كل منهما يتكلم بهواه ويدلل لرأيه ، قال فريد : إن قيمة الكنز المادية — وإن كانت عظيمة — إلا أنها ليست بشىء يذكر بجانب قيمته التاريخية .

— لا زلت أشك فمن المستحيل أن تكون هذه حقيقة ؛ إن الرجل قد رأى كل هذا فى المنام .

— فى بعض اللحظات كان يعترينى مثل هذا الشك ، ولكن نظرات القروى ، وملامح وجهه ، وسذاجة حديثه ، جعلنى أعتقد صدق خبره ، وستجعلك كل هذه الأشياء تعتقد رغما كما اعتقدت.

— كل شىء ممكن فى هذه الدنيا !

— ألا تكون هذه الآثار يا محمود من زمن أجدادنا « الإلير » ؟

— لا أعتقد ، فإن التاريخ لم يحدث عنهم أنهم برعوا فى النقش على الأحجار وعمل التماثيل ، وإن كان غير بعيد أن يكونوا قد أخذوا هذه الآثار وهذه التماثيل من معابد يونانية ؛ فقد ذكر التاريخ أنهم أغاروا على شواطىء بحر اليونان كثيراً . وقد يكون الملك « غنس » قد خبأ هذه الكنوز قبل معركته الأخيرة مع الرومان التى أسر فيها .

— لو كان هذا الفرض صحيحاً لكان كشفاً عظيما جداً .

ونسى محمود أنه يأكل من فرط سروره بهذا الفرض ، بل نسى أنه فرض وتخيله حقيقة ناصعة ، وأنه أول من اهتدى إليها فذاع صيته وخلد اسمه فى صفحة كبار المكتشفين فقد أزاح الستار عن فترة من تاريخ ألبانيا كانت فى زوايا الجهل ، فانتصب واقفاً والشوكة لا زالت فى يده وأخذ يخطو فى الحجرة إلى نهايتها ثم يعود ببطء

ثم كف عن المشي فجأة وقال بصوت ضعيف : لعل الحروف المنقوشة في الرخام تلقي لنا ضوءاً على اللغة الألبانية ، ولعلنا نجد لهذه المسألة أدلة « إليرية » وإن كان الشك لا زال يساورني . وكنا نستطيع أن نحكم على أفكار « هاهن »[1] الذي يقول : إن أصل اللغة لهجة « البلازغ » وكذلك رأى « مابر »[2] الذي يقول : إن أصلها من لهجة « إليرية » ... مستحيل أن يكون هذا حقيقة ، وإلا كانت سعادة لا تعدلها في الدنيا سعادة ، وكان فتحاً جديداً في تاريخنا القومي العظيم .

لم يفهم فريد من كلام صديقه شيئاً فقد كان مشغولا بتقدير الأرقام الكثيرة التي يمكن تبديل الكنوز بها من النقود وكيفية إنفاقها . لكنه نادى محموداً وقال له : إن شهرتي - كصياد - ذائعة في « أشقودراه » فإذا حملت بندقيتي ورافقني كلبي واتجهت خارج المدينة نحو الغابة ، فإن الأنظار لا تلتفت إليّ ، وبذلك أستطيع أن أرى بنفسي محتويات الكهف على أن أكون مع بيرام على موعد ، ولكن! بعد أن أطلع على الأشياء التي سيأتيني بها الليلة

ترك محمود دروسه بعد الظهر وبقي مع فريد في حجرة الطعام يشربان القهوة بعد القهوة ، ويدخنان «السيجارة» بعد «السيجارة» ينتظران بصبر قليل وشوق كثير عودة بيرام ، وكانا كلما سمعا طرقاً بالباب قفزا من مقعديهما يستبينان الطارق ، وقبيل الساعة الخامسة وصل بيرام وبعد أن تصافحوا قال فريد لبيرام مشيراً إلى محمود:

— الأستاذ محمود ، صديق مخلص ، ومدرس نابه ، يحمل أرفع الشهادات ، ويكتب في أرقى الصحف والمجلات . وإننا في أشد الاحتياج إليه ليقفنا على قيمة الكنوز التاريخية . فقال القروي في غير استغراب ، تشرفنا يا سيد محمود ؛ ثم التفت إلى فريد وقال : أنت أعرف بما يفيدنا ومن يفيدنا في هذه المهمة ، وقد اعتمدت بعد الله عليك فتصرف أنت حسبما تريد . فقال فريد : ولكن لينمحي كل أثر في نفس محمود يود أن يسمع منك وصفاً مجملا لكيفية عثورك على الكهف من الوقت الذي وقعت فيه فأسك على البلاط لأول مرة ، فشرع القروي يقص عليهما في هدوء ما سبق أن تحدث به إلى فريد في الصباح . وقد حاول محمود أن يتأكد إن كان صادقاً حقاً ، فأمطره وابلا من الأسئلة التفصيلية كان يجيب بيرام عليها بمهارة حملت محموداً على الاعتقاد

بأن ما يقوله حق لا مرية فيه .

كانت المائدة قد أعدت فأخذوا يتناولون الطعام ونظر فريد ومحمود لم يرفعا عن بيرام الذي كان يأكل في غير نهم ولا شره وهو يجيب على ما يوجه إليه في هدوء ورزانة . وبعد أن انتهوا من طعامهم شربوا جميعاً القهوة واستأذن بيرام في الانصراف ، وقبل أن يأذنا له أكدا عليه ألا يتأخر عن المجيء بالعينات الليلة مهما تكبد من مشقة . وذكره فريد بما يلزم الإتيان به فطمأنهما بيرام بقوله : لكما ما تريدان . والتفت إلى فريد وقال : سآتي بما أمرت به ياسيدي. ثم مد يده مصافحا ، فاستوقفه فريد وأسر إليه : هل أنت في حاجة إلى نقود أخرى ؟ فقال بيرام بصوت مسموع — لا يا سيدي لا يلزمني شيء ! ما ذا أفعل بها ؟ ثم خرج . ولما عاد فريد إلى مجلسه نظر إلى محمود يستطلع رأيه في إجابات القروي وكل حديثه ، وسأله عن الأثر الذي تركته مقابلته له . فقال محمود : ألا تعتقد معي أننا لو أدمنا التفكير في هذه المسألة لذهبت عقولنا من فرط السرور ؟ وأي إنسان يعتوره أدنى شك في كلام هذا الرجل الساذج ؟

وبينما هما منهمكان في حديثهما هذا وإذا بباب الحجرة يفتح ويدخل السيد عفت والد فريد ويحييهما تحية المساء . ثم صافح صديق ابنه والتفت إلى فريد وقال : لقد انتظرتك في المتجر فلم لم تجيء ؟ فقال فريد في سرور :

— شغلني عن المجيء أمر مهم سيدر علينا مالا كبيرا ، فرفع الرجل عينيه وتأمل ابنه مليا في دهشة واستغراب كأنه يستوضحه فقال له فريد : سأقص عليك حكاية غريبة . فأخذ الرجل يجيل طرفه في وجهي الشابين اللذين كانت تلمع عيناهما سرورا ؛ فلم يشأ فريد أن يطيل حيرته فأخبره بمجيء القروي في الصباح وما كان منه ، وأنه كان معهما منذ قليل ، وقد فارقهما على أن يعود حاملا عينة مما وجد ...

تعجب السيد عفت مما سمع ، ولم يصدق بادىء ذي بدء لكنه أذعن أخيرا عندما أكد له محمود الخبر وأنه ناقش بيرام كثيرا ، ووجه إليه أسئلة عديدة وأن بيرام كان يجيب دون تردد ولا تلعثم ، ثم هو فوق ذلك أكبر من أن تحوم حوله الشبهات ، فهو سليم القلب ، طيب النفس ، نقي الضمير ... ومع إذعان السيد عفت لم يبد عليه أن هذا الخبر سره كثيرا كما فعل الشابان فقد جلسوا معا وقتا غير قصير تدور أحاديثهم حول الموضوع ، فلما لمس الشابان أنه لا يشاركهما الفرح استأذناه في الخروج .

(١ ، ٢) هاهن ومابر . عالمان ألمانيان قاما برحلات علمية كثيرة إلى ألبانيا ولهما مؤلفات قيمة عن أصل اللغة الألبانية .